BOBST LIBRARY
3 1142 02885 2054

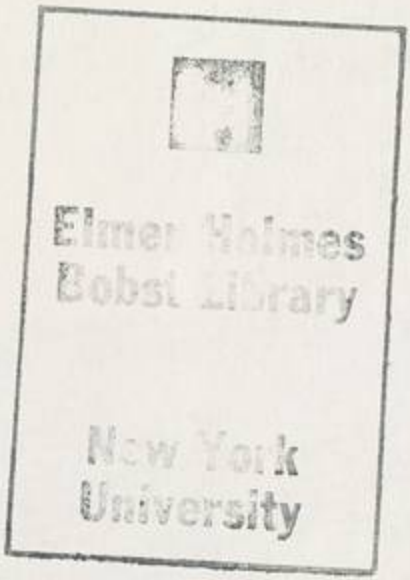

سوء تفاهم

«هو» لسميرة :

« علمتني اليوم أن الحياة مجموعة سوء تفاهم . »

من مسرحية « مفرق الطريق »

أنجز طبع هذا الكتاب فى التاسع عشر من فبراير سنة ١٩٤٢
وقد خرجت منه مائة نسخة خاصة مرقومة

رقم ٧١

خط العنوانات من وضع المؤلف

•

حقوق النشر والترجمة محفوظة له

FARES BISHR
"

بشر فارس

/SŪ' TAFĀHUM/

سوء تفاهم

المعارف
١٩٤٢
بمصر

MAR 22 1964

PJ
7824
.A716
S8
C.1

للمؤلِّف

فى اللغة العربيــة :

« مفرق الطريق » مسرحية فى فصل واحد ، مع توطئة فى الطريقة الرمزية المستحدثة . مصر ١٩٣٨ (مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر)

« مباحث عربيــة » فى اللغة والاجتماع . مصر ١٩٣٩ (مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر)

فى اللغة الفرنسية :

« العِرض عند عرب الجاهلية » ، بحث فى علم الاجتماع .
L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam, Paris 1932, Adrien-Maisonneuve, éditeur. رسالة لشهادة الدكتوراه فى الآداب من جامعة باريس (السربون) باريس ١٩٣٢

« المشكلات التى تعرض للكاتب العربى الحديث من جانب اللغة والثقافة والاجتماع ، ولا سيما فى مصر . » مبحث أُلقى فى معهد الدراسات الاسلامية لجامعة باريس ، ثم نشر فى « مجلة الدراسات الاسلامية » *REI* باريس ١٩٣٦

« مباحث » نشرت فى « تكملة دائرة المعارف الإسلامية » *E. I. Supplément* الخارجة فى لَيْدِن ، ١٩٣٦ وما يليها . وقد نقلت هذه المباحث إلى اللغتين الألمانيــة والانجليزية فى السفر ذاته .

« مفرق الطريق » معــدة للطبع

إلى مَن هذّبنى فشعرتُ

ب . ف .

« القصة عندى حنيّة من صدر الحياة تُنتزع ، لا صورة من صفحتها الواضحة منسوخة :

« يجب أن تكون القصة برقاً لمّاحاً طىّ سُحُبٍ سود ؛ والسحب السود هى الحياة الجيّاشة . وهذه مشكلة من حيث مباعثها ومن حيث دفائنها . فالقصاص هو الذى يستطيع أن يبصر ، فى لفتة نفّاضة ، بمبعث من هذه المباعث أو بدفينة من هذه الدفائن ، فيدوّنها . ويجب أن تنطوى القصة على شاعرية فى الأداء وفى التصوير خاصةً ، حتى تفلت من جفوة الواقع . وأما قوامها فرهافة فى تحسُّس القيم الإنسانية ، بمعالجة كأنها هينة ، مادّتها حادث تفِه ، عبارة سانحة ، شعور قد ومض ؛ مع اجتناب التبيين المنطقى . ولا أكتم هنا أن طائفةً من القصاصين الإفرنج الذين تخرجنا عليهم أضرّوا بفن القَصص عندنا ، إذ وجّهوه إلى التحليل المطّرد ، العاجز عن الخلوص إلى عُقَد السرائر ...

« ... ومدار الإنشاء الرفيع أن يجعل المنشئُ القارئَ يشاطره فنه : يلابس المنشئُ تجربةً ترجف حِسّه فينقلها وجوَّها الخفيّ إلى القارئ ، فى لطف وصدق . وربما لابس القارئُ مثل هذه التجربة ولم يفصح عنها ، أو ربما هُيئت نفسه إلى أن تتمثل التجربة ذات يوم . حتى إذا أفصح المنشئُ — وإنما الإفصاح ذهن يتحرك : فكرة تسعى من المعقول إلى المحسوس — قبض القارئُ على التجربة وتفهمها وتذوقها . وبقدر تمام الإفصاح يكون تمام القبض . وهذه هى نفضة القارئ التى تعقب نفضة المنشئ ...

« فالقصة ليست للتسلية : عليها أن تثير القارئَ وأن تشغل باله . وما بها حاجة إلى حبكة متصلة السِّلك ؛ بل شأنها أن تكون جسّاتٍ تتلاحق على لوح الحياة المندفقة : فلا مقاطعة ولا توقف ، ولكن مساوقة وتبسط ؛ ذلك هو الإيقاع الطافر

الهابط ، المستقيم المتكسر ، لا تحبسه خطة ملفّقة فى ذهن المنشئ ، عابثة بحق الطبيعة المستفيضة على الثناء ، ذات السكنات والفورات ...

« وإذ كان على القصصى أن يكون إنساناً حقًّا ، فله أن يتلطف فيما يكتب ليستنطق البشرية الشاكية ، ويغمز ببعض المظاهر والمخابر غير ساخرٍ منها لوجه السخرية وحدَها ... وله بعد ذلك أن ينعطف إلى التأمل فى منحنيات القصة ، على أن يكون تأمله طريفاً وبنجوة من الخطابة والاعتراف الأنانىّ ... وهو ، فى الجملة ، يستطيع أن يعطى ما يشاء على أن يكون مخلصاً للحياة ، للفنّ ، للقارئ . »

من رأى المؤلف فى فن القصة ؛ عن « حديث » له نشرته مجلة « المكشوف » البيروتية ، العدد ٣٣٢ ، ٢٤ / ١١ / ١٩٤١ . ونقلت صفوته « المقتطف » عدد فبراير ١٩٤٢ ؛ و « الثقافة » العدد ١٦٣ ؛ ٣ / ٢ / ١٩٤٢ ؛ وفى الفرنسية Le Journal d'Égypte القاهرة ١٤ / ٢ / ١٩٤٢

قصة تكمل

جلستْ إلى مرآتها تتحدى . ظنت أن صفاء بَشَرتها يكفيها . وهل تمنع المرآةُ غيرها أن يظفر بصفاء ؟ فلِمَ تتحداها ؟ هلاّ تحدتها فى غير هذا ! المرآة ترضى أن تعكس كل شىء : الحسَن والقبيح ، التام والناقص ؛ تعكس الأشياء على السواء ، فلا غطرسة ولا جور . وليس الصفاء الذى يحمل المرآة على ذلك . إنما الصفاء صفة ، قد تزول . حتى إذا صدئت المرآة تساوت الأشياء فى الانعكاس . للمرآة طبيعة سمحة ، عالية ؛ فهل خطر للفتاة أن تتحدى المرآة فى هذا ؟

وكيف تطاولها فى هذا الجانب غير المحسوس ، وهمُّها البريق الذى يأخذ طرفها المحصور ؟ حصرته الزخارف التى تعلو ما يدور

من حولها . ولو انسرح طرْفها فامتد إلى مطارح الحقائق لجلست إلى مرآتها فى ضعة نفس ، ترجو منها فى الصباح وفى الليل أن تطمئنها عن تحوّل وجهها ، كما تُطمئن المرآةُ العوراء عن اطِّراد سلامة عينها الأخرى .

كانت النوافذ مطبقة ، ما عدا واحدة دقيقة . فكانت الظامة غالبة على نواحى الحجرة . ذلك كان دأب الفتاة كلما تحدث مرآتها ... المتطاولون يخشون النور ؛ إنه ليفضح المستور . ولعل الفتاة كانت ترتاح إلى بعض الظامة للخواطر التى تعطِّل مسير فكرها : كانت فى تلك اللحظات القواتم تتمهل عند عرض المولَعين بها ... والولع بالمرأة عندنا داء ، ولكنه لا يهدد الدم ، يطفو فوق الجلد . وكان أكبر شاغلها أن تتبيَّن بماذا تستهوى المحبين . هنا يتعطل مسير فكرها ، وفى التعطل جمود ، ووراء الجمود حمق .

إنهم يحبونها ويتنافسون من أجلها لغمزات فى نظراتها وبسماتها ، أو لطَيْرة ثديها ورجفة خصرها ونزوة ساقها ... من يستطيع أن يتتبع الحسناء فى تفصيلها مفاتنَها ؟ كل هؤلاء يودون أن يجالسوها . وهى تفرض عليهم عشاءً هنا ونزهةً هناك ، وتتقبل منهم ضريبة الولع من ملبسٍ ومصوغ ، غيرَ ما تجود به ألسنتهم

من قرابين التملق . وإن بدا لأحد منهم أن يدسَّ فى كيسها نقوداً فأهلاً بها : « أحسن من عينه ! » ذلك ما تقوله الفتاة كلما عادت إلى دارها فاهتدت أناملها فى الكيس إلى ورق طالما انغمس فى الأسواق فتلطخ بزيف النية . « أحسن من عينه ! » وعين المولعين بها قبيحة ، لأنها تستجدى وفى تبذلها خبث الفتك .

ثم نادت خادمها :

« افتح النافذتين ! »

هجم نور الأصيل مشتاقاً ؛ ومعه هجم على الفتاة خاطر لا يَرِد والظامة غالبة : يا ترى ما قصة ذلك « المخبول » ؟

ثم التفتت إلى خادمها :

- « إذن سلمتَ الرسالة إلى الأستاذ ، وسألتَه هل من رد فقال ... »

— « قال : لا . وزاد كما أخبرتك أمس : سلِّم على ستّك . »

— « سلِّم على ستّك ... رقيق والله هذا الأستاذ ! لكن هل استوثقتَ أنه قرأ الرسالة ؟ »

— « نعم ، تنحى فقرأها . »

— « هل قرأها كرًّا ؟ لم يستعِدْ منها سطراً ، حرفاً ؟ »

— « لم أسأله يا ست . »

— « الحق معك . ولكن، ألم تلمح فى وجهه شيئاً وهو يقرأ ؟ »

— « لا يا ست . »

— « إن له وجهاً يحيِّر قاضى التحقيق . حسن . . . انتظر . لم يتلفن لى أحد ؟ »

— « لا يا ست . حتى الأستاذ . »

— « وما يُدريك أنى أقصده يا أبله ؟ اخرج ! »

« ليس من ردّ . فليكن ! وعلى كلٍّ فما يكون رده على رسالة أنذره فيها بالقطيعة ؟ إنها ليست بقطيعة . إنها لَتحطيم صنم ! إنه أدرك أنى لا أنعطف إلى مثله ، إلى مخبول . لا شك فى أنه مخبول . »

وإذا صوت من ورائها :

« من تعنين ؟ مساء الخير . »

— « أنتِ هنا ؟ يا عزيزتى ، مساء الخير . لم أُحسّ دخولك الحجرة . »

— « لعلك مشغولة بذلك المخبول . ما القصة ؟ »

— « كنت أخبرتك بأمر رجل ... »

— « الذى يسعى أن يلقِّنك كيف يستسلم القلب ويخلص . »

— « عرفتِه . بعثتُ إليه أمس برسالة أخبره فيها بأنى فى غنًى عن تلقينه . هل تتصورين أنه إلى جنب خبله يأذن لنفسه أن يغلظ لى فى الكلام . إن فى حديثه ، على قصره ، تطاولاً وسماجة ... أنا أُمتوعة فى عينه . لمه ؟ لأن لى معجَبين ومحبين . أنا أُلهية فى عينه . لمه ؟ لأنى أعين الرجال بأنسى وهِزَّتى ، هذا على تفريج حياته الزوجية ، ذاك على قطع مفاوز الليل . أنا يا مخبول نعمة ! لستُ سلعةً تُساوَم حتى أكون أمتوعة ، ولست كُرَةً للتقاذف حتى أكون ألهية . أنا أصنع ما أشاء بالرجال . »

— « نحن نصنع ما نشاء بالرجال . ولكن للرجال أن يروا فينا ما يبدو لهم . »

— « آه لو كان يلومنى عن غيرة ! لا ، إنها لقحة . إنه يريدنى على أن أدرك أشياء غريبة ، لا يُقرّها عقلى ولا تعرفها نشأتى ، مع أنى لم أخرج من بيئة وطيئة ، وهو يعلم ذلك ... ماذا ؟ يريدنى أن أكفّ عن سيرتى ، فلا أجالس المعجبين والمولعين .

ما شاء الله ! فلِمَ أنا امرأة ؟ ولِمَ أنا حسناء ؟ ولِمَ أنا خلّابة ؟ إنى لم أخلق عبثا . »

— « ولا أنا . »

— « يقول إنى أهل لما فوق هذا . يقول إنى أستطيع أن أهب ولكنى أعطى . شرح لى ذات يوم ما بين الهبة والعطاء . حديث متعرج نسيته ... قال المخبول إن المرأة الحسناء كالمرأة القبيحة ، لا تفضلها بشىء ، وإنما الفرق بين النساء فى قدر جسِّهِنَّ روحَ الرجل . »

— « أذكر أنك نقلتِ لى أن روح الرجل فى رأيه مصباح كهربىّ ، زرّه تحت ضغط إصبع المرأة . »

— « يريدنى أن أحلّق فأكمل فأهذِّب . ضحكت من تفلسفه ، بل غاضبته ، وهو لم يغضب ... أيحبنى هو ؟ لو كان يحبنى ما ترك رسالتى بلا ردّ . كيف يرضى بالقطيعة مطمئن النفس ؟ »

— « ألا تذكرين كلمةً له رددتِها ذات ليلة : المرأةُ يغصب قلبَها الصمت ... عرفتُ رجالاً — هل هم رجال ؟ — يضجون ويهددون ويندلقون عند الأقدام ، وأناملهم تلوّح بقصاصات عهود . ثم ماذا بعد الظفر ؟ بعد انكسار فورة العناد وشِرّة الشهوة ؟

أهذا هو الحب ؟ إنى امرأة ، وكأن شيئاً فىّ يقول : لا ... أظن صاحبك يسخر بهذا الحب ... إنه بصّرك بعض الحقائق ، وأنا لم يبصّرنى أحد . »

— « نعم حاول ... هل فهمتُه ؟ يسخر بكل ما يتصل بشئون قلوبنا . ساخر مع وفرة إحساس وصدق شعور . إنه لعجيب ، ليس كسائر الرجال . أجلس إلى هؤلاء فلا يضرب فىّ عرق ؛ أين ، أين هذه الروح التى يجب على المرأة أن تجسّمها ؟ .. أين هو ؟ »

— « أحسبك مللتِ — كما مللتُ — هؤلاء الرجال . لا يصلحون إلا للضحك . ألا تشتهين البكاء أحيانا ؟ »

— « لا أشتهيه بين يدَى هذا . قلت له إنى أبحث عن زوج ، قال : سوِّى أنت الزوج . ألا يدرى أن المرأة انتزعت من ضلع الرجل ؟ إنه لعجيب ! .. يقتل الرفقَ بالقسوة إذا حدَّثنى . ولا يُعنَى بحسنى ، ولا بأجزائى الجذابة ، ثم لا يُثقل كيسى ... إنه يتلمَّس فىّ برقاً يلتوى فى سماءٍ مغبرَّة : حياةِ الرجل ، كما يقول ... إنه مخبول . يريدنى أن أهب فى حين أنى أعطى . كيف أهب ؟ وماذا أهب ؟ هل يرشدنى ؟ ثم لمن أهب ؟ لرجال يقتنون لعباً كما يؤكد . »

هنا هدأ الصوت :

« هل يرشدنى ؟ لعل الهبة أحلى . إنه يعلم الشىء الكثير ، فقد لابس النساء ، ولا سيما نساء أوربة . »

ثم سكتت ، ثم أضافت كالتائهة :

« لعل الهبة أحلى ... حديث متعرج نسيته ... فى ذلك اليوم مال إلى الإفصاح مسهباً ، على غير عادته ، ولم أتبعه . إنما عينه مجال حديثه فى أكثر الحال ؛ وكم حيّرنى نطقها الصامت ! سألته مرّة هل يستبقينى إن أنا زللت — ما أسخفَ النساء ! — فابتسمت عينه — وما أحلاها إذا ابتسمت ! — والآن أدرك أنه لا يستبقى ... لِمَ لم يردّ ؟ . آه ! ماذا صنعت ؟ »

قالت الصديقة :

« هل نلتِ منه فى رسالتك ؟ إنى لا أعرفه . ولكنى يُخيل إلىّ أنه لا يغفر لامرأة ما يغفر لرجل ، وقد علمه الحبُّ البغضَ . أظنه رجلاً يجمع النقيضين فى خفقة قلب . كمن يقول : يوم من أيام مارس تنازعه الصيف والشتاء . »

— « لم أنل منه . كتبت إليه أن بينى وبينه بعداً فلا حاجة إلى اللقاء والمحادثة ، وأنى لن أكفَّ عن سيرتى ، وأنى مصرة على أن أرى فى الرجال مرضاةً لغرورى ومرتعاً للهوى ، وإن عدَّنى

المولعون بى أمتوعة فى سرائرهم ... وما تكون سرائرهم ؟ أجرى طبيعتى على مثال طبيعتهم . أيريد هذا المخبول أن يبدّل أوضاع المجتمع ؟ قال لى ذات يوم إنه يود لو ينبتّ الحب فى بيوت مصر ، كأنما كل هذا اللهيب الذى يضطرم فى شراييننا لا يقنعه ... لِمَ لم يردّ ؟ أحسن ! هكذا نجوت منه ... لماذا أقول نجوت ؟ هل من خطر يهددنى على يديه ؟ خطر التحليق كما يزعم . »

زادت الفتاة فى صوت منخفض ، ينبعث من غيابات النفس :

« وقد أكد لى أنى أهل له ، أنى أهل له . أنا ... نعم أنا ... ولِمَ لا ؟ »

فقالت الصديقة كالمستهزئة :

« لِمَ لا تكونين أهلاً لذلك . يا عزيزتى إن الخبل بالباب يترقبك ، فاحذريه ، اطرديه . لنخرج ! »

فعاود الفتاةَ الصوت المنخفض :

« أمخبولة أنا إن صرت برقاً يلتوى فى سماءٍ مغبرّة ؟ »

فأدركتها الصديقة :

« ما مغبرّة ؟ »

زاد صوت الفتاة فى الانخفاض ، حتى مات دون الشفاه :

« لا أستطيع التحليق ؟ إنه ضَمِن هـذا ، وهو يعلم ماذا يصنع ... هذا المخبول الذى قطعته أمس ، ومن يُدرينى أنه مخبول . لعلَّ الهبة أحلى ... لنخرج ! »

ثم نادت خادمها :

« أعود بعد ساعة . فإن تلفن أحد ... »

لم يتلفن أحد . فجلست تقرأ فى كتاب أعارها صاحبها إياه . فكان اسمه بين السطور يطارد الحروف . فأمسكت ثم قالت لخادمها :

« انزل ، وانظر هل لى رسالة فى الصندوق . »

هبط الخادم ، ومعه قلب هبط . فتداركت الفتاة بعض صدرها . ثم صعد الخادم واجماً ، فلم يصعد القلب . وباتت الفتاة تلك الليلة ويدها لا تفارق بعض صدرها . ثم استيقظت والشمس تستأذن الأفق فى الإشراف . فكرهت الفتاة الظامة وما يدور لها فى الظامة من خواطر . فاستبقَت النوافذ كلها تفتحها ، وقد غفلت عن مرآتها وأبت التحدى . ثم جعلت ترصد النور المعلق ، عسى أن يحدث شىء !

القاهرة ، ٦ — ٨ ديسمبر ١٩٤١

طبق فول

كانت المرآة لا يُعوزها سوى الصفاء . وفى الأشياء ما يعوزه الأهم ، فتعجَب كيف يكون ... إنى أعرف برلمانًا يفتقر الحين بعد الحين إلى ثقة الأمّة

كذلك الناس يُعوِز أكثرَهم ما يقوِّمهم ، ما عدا المرأة العاشق — والأم امرأة عاشق . هذه المرأة ليست من البشر بل من جيل الملائكة . ألا تبصر ذراعيها كيف تدِفّان وهى تهدهد حبيبها ؟ الإحساس السخىّ وُلد فى زرقة سماء لم يرد وصفها فى كتاب ، ثم هبط على جناح التفدية حتى سُمرة الأرض ، فضاع خيره فى الأزقة القاتمة والسهول البائرة ، بين براثن الجشع وقهقهات الاستخفاف .

كان جارى من الناس ، واسمه « لطيف » .

وكان ينظر فى مرآته يصفّف شعره . وكانت المرآة لا يعوزها سوى الصفاء .

نظر لطيف أفندى إلى المرآة بمؤخِر عينه يلومها على عكس وجهه ، وقد تنبه أن الماء لم يحيِه بعد .

غسل بعض الوجه، ووعد المرآة أن يقبل على الكل فى الغد ... الأمور العسرة لا تنجَز فى يوم واحد .

فتح النافذة فلمح فى نافذةٍ إزاءه جارتى ، وكانت فى الأربعين ، فخيته — والنساء أصبحن يحيين الرجال فى مصر — فأراد الابتسام ، فجعل من فمه شقَّ صندوق بريد . وتذكر فجأةً أن الفوّال ينتظره ، فأغلق النافذة ولم يعتذر ... أكلُ الفول فوق الاعتذار .

ولم يكن لطيف طِلْبَ نساء ، ولم يدرِ كيف يُداوَرن ؛ ألم ينشأ فى بيت عدَّ أهله مخالطة الرجال للإناث منقصة ؟ جهلوا أن الشىء لا يكمل إلا بضده : البياض لا ينصع إلا إذا طوَّقته بسواد .

جارى رجل يركز أوتاد نهاره فى المطعم ، وينصب خيمة الليل فى القهوة ، حتى أمكن بطنَه أن يخط فى الفضاء نصف دائرة يملأ جانبَها الأسفل بنطلون أزرق أبداً يسعنى وإياك .

كان جارى لطيف أفندى مطمئنًا إلى عيشه : ينفق مرتبه الحكومى فى مط الدائرة . وكان سعيداً لا يحسد أحداً ، ولا يجرب التبذير فى التنزه ، ولا يدرى ما القشعريرة ساعةَ التبرد فى الحمام .

ثم هوت عليه جارتى . وكانت مستديرة الوجه ، منطلقة الأنف ، تدافع فتك السنين بمكايد التجميل حتى ردت وجهها بشتى ألوانه قوس قزح ... النساء صواحب افتنان ! ثم كان لها حزام كُلِّف فوق طاقته ، ومعطف وردىّ منزعج على كتفيها ، وحذاء له كعب طوله طول أنفها ... التناسب من شرائط الفتنة !

قرأ لطيف فى القصص التى استعارها من فراش الوزارة — وصداقة فراش أمر هين ، يتودد إليك وحسبك قبول ذلك — قرأ لطيف أن العاشق رجل مشذب ، نظيف . فإن صح ما فى الكتب فإنما يحسن به أن يودع بنطلونه العزيز عليه لبقع الزيت والدهن التى تزوِّقه ... القراءة مفسدة لأمثال لطيف أفندى .

من ضياع حظ لطيف أنه بَشر ، أنه رهين توأمين : البله والكِبْر . ألا تبتسم الجارة صباح كل يوم ؟ فصعد من بين جنبيه الساذجين حتى رأسه ما ضرب على عينه فابيضَّت . وقد أكد

فراش الوزارة لزوجه أن قوس قزح هو الذى فرّق بصر لطيف ، وأكدت زوجه أن الجانى هو ما بين الجنبين .

هل يطلق لطيف أفندى بنطلونه الأزرق فيتقلص بطنه فى المستقبل ؟ إنه سمع بعض المجربين يقول فى القهوة : إن عِشرة النساء ، فى مصر خاصةً ، ترهق الجيب ... ولقد ختم المجرب حديثاً طويلاً بهذه الجملة الخبيثة : النساء هنا من الحلّ ، لهن ما لها وعليهن ما عليها .

مصر تنعم بشم النسيم ، على عادتها فى شئونها : جلبة وفرقعات متواصلة . فتنبه لطيف حنِقاً ؛ لأنه نُزِع من أسعد حال . كان يحلم أنه ملتزم جارته ... الحلم مأوى الخائب ! آهِ لو كان تيسر لى أن أخبر لطيفاً أن المحن وراء التزام الرجل المرأة !

غمس لطيف بصلة فى الخلّ ودسّها فى أنفه تحيةً ليوم شم النسيم . هل يفوته أن يحيّى يوماً لا عمل فيه ؟ ... لطيف أفندى موظف فى وزارة .

دس البصلة فى الأنف ، وإذا الخل يطلِق خلايا دماغه مما ركبها من طول أكل الفول ، فبدا له رأى ينكره عاقل : مشّط شعره ،

وحلق الذقن متطاولاً إلى ما تحت العينين ، وأنهض الشارب حتى كشف عن شَق فى الشفة العليا . وظل مع هذا قذر الأذنين ، تَذكاراً لماضيه .

عرج لطيف فى السلم إلى شقّة الجارة ، وبين يديه طاقة من الورد تسأل نفسها أين سقطت ؟ دق الباب هيّاباً .

خرج إليه شيخ :

« ما حاجتك ؟ »

سكت صاحبنا ... لِمَ لم تخرج المرأة ؟

أعاد الشيخ السؤال فى غضب . فتمتم لطيف تائه العين ثم قذف بالورد بين يدى الشيخ ، وانحدر يكبكب فى السُّلَّم ، كأنما الكرة الأرضية تطارده . ولما اطمأن صاح من تحت :

« للست من فضلك . »

استفسر الشيخ زوجه عن الرجل الذى صاح من تحت . فعرفت لطيفاً . فانشرحت صدراً ، وقالت هادئة :

« لا أعرف الرجل . »

— « سواء عرفته أم لم تعرفيه ، هذا رجل حمّلنى طاقة من الورد لأدفعها إلى الست . ماذا ترين ؟ »

— « عجباً . »

— « لِمَ الإخفاء ؟ »

— « معاذ الله . »

— « أنت تدبرين أمراً . أخبرينى به . »

— « والله ما أدرى شيئاً فأخبرك به . »

— « إذن أسأل من هو أعلم منك بالأمر . »

— « من يا رجل ؟ »

— « ابنتنا . »

— « وما يدريها ؟ »

— « إنك تلتمسين لها زوجاً على شاكلتك : أنت تُنهضين ساقك على كعب مجهود ، وصاحب الطاقة يُنهض شاربه على شفة مثلومة . فتعارفا على يدك ، ولعلهما تراسلا بل تلاقيا ، وأنا جاهل بما يجرى فى بيتى ، واليوم أقبل الرجل يتحف ابنتى بورد . »

صوتت المرأة . نخف الشيخ إليها . فوقفته بنظرة يأكلها السخط ... ما يكون قدر المرأة إن لم تُثِر الظنون حول ستائر الحصانة ؟ هل خابت مكايد التجميل ، والزوج أول من يكاد له .

التفتت إلى المسكين :

« أهذه فطنة الرجال ؟ »

ثم عادت إلى نفسها : الرجال كلهم حمق ، وسيدهم هذا ، والأحمق لا يستحق الشفقة .

فأقبل عليها سيد الحمق :

« ما بك ؟ قولى : ما صلة ابنتى بالرجل ؟ »

— « من هى ابنتك ؟ »

— « ابنتكِ أيضاً . »

— « دع عنك شأنها ، فما أنت أبوها . »

— « ما تقولين ؟ »

— « الحق . »

— « كذبت . »

— « كنتُ كاذبة . »

ولَّت المرأة مستريحة ... عجيب ! تستريح النفس كلما فتكت بأُختٍ لها .

بسط الشيخ يده يريد أن يحس المرأة ليتحقق أنها زوجه ... اللمس وحده يذكِّر الجسم بالجسم : المصدر المباشر للذة ثم للألم .

زاغت المرأة ، والنساء يحذقن الإفلات من قبضات الرجال .

فلحقها الشيخ ويده تعدل عن طلب الجس إلى شهوة اللطم ، ثم جمد فى مكانه كأنه أحس بغتةً أن المرأة إنما حبيبها الذى يحق له أن يضربها .

وذات صباح خرج لطيف إلى فواله وقد نسى الجارة ، وهو يريد أن ينسى ذلك الشيخ الذى أخافه . خرج وقد استردّ بطنُه بعض جلاله وأمنت نفسه بلايا الشعور . وإذ هو بباب الفوال عرض له شيخ سلم عليه ، فردَّ لطيف السلام ... السلام لا يكلف شيئاً ، وبه تُقضى أمور فى مصر .

— « أتذكرنى ؟ »

— « لا ، معذرةً ! »

— « أتذكر طاقة ورد حملتنيها على عجل ؟ »

— « إنى ذاهب إلى الوزارة . الوزارة مكان فيه عمل كثير ، السلام . »

— « لا بأس عليك ؟ فما أبتغى إلا محادثتك . أرجو منك أن تجالسنى . »

لم يرقَّ لطيف ، ولكنه كان جوعان . فدخلا إلى الفوال .

فأقبل طبق الفول مهيباً . فأطلق لطيف فيه أناملة : القضاء يطلق مخالبه فى الخلق . فما أبطأ وجهه أن لمع بفضل الزيت . وأما الشيخ فأخذ يقصّ قصته ، ثم قال :

« وهل أكاشف أحداً سواك بأن ابنتى لغيرى ... بعض البلايا إثم ! أنت وصلت ذات يوم حتى باب دارى ، وأنا أدخلك الآن فيها وأطلعك على ما جرى بين جدرانها ... بضع خطوات فقط . وأما غيرك فيجب أن أقطع مفازةً حتى أخبره بحالى . وغيرك ، يا أخى ، لم يُثِر محنتى ، فلا شأن له بها . أنت ابتدأت وأنا أتم . »

عاد الشيخ إلى شكواه : ثقة غرقت ، وعِرض تمزق ، وحب ذلّ ... مِثل شكوى الشيخ لا نهاية لها ، لأنها شكوى نفس إلى نفسها ، شكوى قلب حرّان عليه أن يرتوى من دمه ... من ضرورات النفس أن يأكل بعضها بعضاً أحيانا .

كان لطيف أفندى ينظر إلى الشيخ بين مضغة وأخرى ، وقد شغله طبق الفول وزيته عن الرجل ومحنته .

القاهرة ، مارس ١٩٤٠

السفينة

الشمس هنالك تبحث أين طَلّابها .

والحجرة فيها أربع نوافذ ، والنوافذ الأربع مفتوحة ، والحجرة لا تزال مظلمة : رئة مصدورٍ تزدرد الهواء ولا تنتفخ .

فى الحجرة أثاث لو مسستَه لطار ، كأنه مصنوع لجيل من الملائكة الرُّحَّل . وفيها تمثال عزيز من صنع أهل الصين دفن ثلاثةَ نحّاتين واحداً بعد واحد قبل استوائه ، وفيها طنافس لو قصدتَ بها إلى أمريكة الشمالية فبعتها لرجعت وفى قبضتك ما يجذب فريقاً من نواب أمة راقية .

حجرة مظلمة فيها أربع نوافذ مفتوحة ، وعجائب ... ورجل لم يجرؤ قط أن يسأل نفسه لِمَ يعيش .

وإذا باب الحجرة ينشق عن شيء بين البياض والسمرة، مثل يوم من أيام الخريف يرنّحنا بين الصحو والمطر. شيء يتحرك في تؤدة: كَفُّ رسّام تُثْبت فكرة. شيء دخل فاسترسل بياضه إلى زوايا الحجرة فأنار عجائبها، ثم مالت سمرته جهة النوافذ فاهتدت الشمس إلى الحجرة.

انشق الباب عن الآنسة أمينة.

— «أتأتينى فارغة اليد؟»

— «عفواً يا صديق. إنى لم أنته من زَرْد «الپُل - أوڤِر». لم يبق إلّا كُمّ واحد. عدت إلى البيت أمس ليلًا، وشرعت فى إنجازه، فإذا صديقة لى تزورنى وتلهينى عنه. أما صباح اليوم فقد خرجت أقضى حاجات لأبى.»

— «الله! الله! زيارة ليلًا وخروج صباحاً. وأنت تعلمين أنى أرقب «الپل — أوڤر». قلتُ لك إنى راكب السيارة غداً التاسعة صباحاً أطلب الصحراء، ومعى نفر من الإخوان؛ قلت لك إنى لا بد لى من «الپل — أوڤر» لأنى مرتدٍ ثياب رياضة، وقد لمّحت لإخوانى بالپل — أوڤر المرتقَب. فماذا يقولون إن لم يزِن صدرى، أتجعليننى موضع سخرية؟

لِمَ هذا الصمت ؟... لأنك مذنبة .

أنظرى كيف وجهك شاحب ، كأن جفنك صارع الإغماض طول الليل .

اسمعى ! هل رغبت أنا إليك أن تزردى لى هذا « الپل — أوڤر » . أنت أحببت أن تحفينى به ، وقد قلت لى : سترى مهارتى ، وإن لم أكن ماهرة فسأكون ماهرة من أجلك . سترتدى « پل — أوڤر » فريداً لا يتطلع إليه آخر . ستكسوه عينى ، وهى تلاحظ أناملى ، نضرةً بسّامة .

شعر كل هذا ، يا صديقتى ! أما « الپل — أوڤر » ... أما الشىء المحسوس فأين هو ؟

تديرين وجهك ... ذلك خير . »

إلى النيل . إلى ما لا يُرى أوله ولا آخره ، فيمتد معه النفَس ولا ينقطع .

استندت أمينة إلى الحاجز القائم عند شطء النيل... والحواجز لا تقام لمثل أمينة ، لأن أمينة لا يغمرها شىء ؛ هى نفسُها تغمر : إنها خُلقت لتفيض وتنبسط ؛ أمينة نيل آخر .

انشق الجسر شقّين ، وإذا سفينة بشراعها تمرّ ، والهواء ميْت ؛ ترسل مجاديفها برفقٍ عظيم ، هل تستأذن الماء فى الجريان أو تعتذر إليه من شقّه ؟

أمينة تناديها : « إلى أين أيتها السفينة ؟ وماذا تحملين ؟ عسلًا أم تبنًا ، قمحًا أم بلحًا ؟ شَدَّ ما أضناك السفر ! لعل الذى ينتظرك يرى العسل لم تفسده الشمس ، والتبن لم يَغْزُهُ الماء ، والقمح لم يأكله السوس ، والبلح لم يهلكه التراب ... إنْ لم يُرض حملُك فما معنى الرحلة ؟ إن الذى ينتظرك لن يبالى ما تجشمتِه . هل تجشمت شيئًا وأنت تجرين ؟ ألستِ سفينة ؟ هل تجهد الحربُ الجندىّ وهو لها موجود ؟

أيتها السفينة ! هِى ، هِى ، قبل أن تغيبى عن بصرى ... وسرعان ما تغيبين ، لأن بصرى أدَّخره لهذه الليلة . قبل أن تغيبى ، اسمعى يا سفينة : المرسى أشقّ من المجرى ... هذا الجسر لا يزال منشقًا . فإن كان حملك غير مُرضٍ فارجعى . احذرى القلب الجاهل ، يا سفينة . ارجعى ؛ ار ج عى ... »

— « ماذا صنعتِ يا أمينة ؟ ألمح الخيبة فى وجهك . »

— « الخيبة ؟ صدقت يا أبى . »

— « من حادثتِ ؟ وماذا قلتِ وماذا قيل لك ؟ »

— « بكرت إلى صاحب الدكان نفسه ، واعتذرت إليه من إخلاف الوعد ، وبسطت له ما لقَّنتنيه : قلت إنى لم أُحضر « الپل — أوڤر » لأن الصوف الذى أصنعه منه نفد ، وأنه نادر ، فبحثت عنه أمس واليوم فلم أجده . فغضب وأنذرنى أنّ آخر موعدٍ لتسليمى « الپل — أوڤر » إليه الساعة الثامنة من صباح غد ... ولا بد من الإذعان ، لا بد ... إنى أخشى المنافسة ، من يُدرينى ؟ لعل فتاة أخرى تُحكم ما أُحسن . »

— « هل تظنين أنه يَنقدنا بعض القروش ؟ أوْ يظل مصرًّا على رأيه : العمل الأول لا مكافأة عليه . »

— « لن ينقدنى شيئاً يا أبى . »

— « لو قلتِ له الحقيقة ؟ »

— « ماذا أقول له ؟ إنى أخلفت الوعد لأننا لم ندفع قسط الكهربا فقطعت شركة النور المجرى أمس ، فلا سبيل إلى الزرد ليلا ؟ أقول له إنى أذهب إلى بيت خالتى الثامنة صباحاً فألبث حتى السادسة مساء أقوم بأمر أطفـــال ثلاثة فتطعمنى خالتى

وتطعم أبى ؟ أم أقول له إنك فُصلتَ من عملك ؟ لا ، لا ! كيف أقبل الإحسان من هذا الرجل ؟ »

— « ليس هذا بإحسان ، يا أمينة . وهبيه إحساناً فهل هذا الرجل خبيث النفس حتى إنك تخشين أن تستعطفيه ؟ ... إنى أحب أن أعرفه . »

— « لا يا أبى ! لا ، لا ! لن تعرفه ... الحق أنى لا أشك أنه كان ينقدنى جنيهاً أو أكثر من جنيه لو كنت شرحت له حالنا . لكنى لم أجرؤ . هل أسأله أن يعينى وهو يظننى منعَّمة ؟ »

— « ولكنك لستِ كذلك ! »

— « هذا ما يظنه ... أو هذا ما حملته على ظنه . لا ، لا ! أنْ أسأل هذا الرجل ملِّيماً أمر مستحيل . إنه لا يعرف ما البؤس ، وأكره أن أكشف له عن بثوره . »

— « غريب ! »

— « آه لو كنت تدرى . »

— « إذن ستزردين الكُمَّ فى هذه الليلة . »

— « نعم . »

— « وبصرك ؟ إنى أخاف أن تتلفيه . »

— « لا تخف يا أبى . إنى أدَّخره منذ الضحى ، بعد ما سرَّحتُه فى النيل قليلاً ، قليلاً جدّا . »

— « ولكن على أى ضوء تبصرين ؟ »

— « على شىء فى صدرى يحترق . »

— « إنك خفضت الصوت ؛ لم أسمعك ... على أى ضوء قلت ؟ »

— « قلت : على ضوء القمر . . القمر صديق من أظلم بيتُه . »

جلس الأب إلى جانب ابنته . وأخذت أنامل أمينة تذهب وتجىء ، والصوف يطاوعها . ضم الأب ابنته إلى صدره :

— « أمينة ! لا تبعدى عنى أبدا . إن حبى يعدل حب زوج . أنت معى سعيدة ، ويعلم الله هل تسعدين مع رفيق ... أمينة ! ما لعينك تدمع ؟ أتهمِّين بالبكاء والقمر إليك يرنو ؟ أمينة ... أمينة . . لم أحسن الكلام . عذراً ، عفواً ! قلتُ ما قلت وأنا لا أفكر إلا فى نفسى . »

قالت أمينة : « وهل يستطيع رجل أن يفكر فى غير نفسه ؟ »

ثم عادت الأنامل إلى الذهاب والمجىء .

باريس ، أكتوبر ١٩٣٨

فيثار مغترب

كان ذلك فى عهد يُشحَن فيه الدماغ وتُزخَر المعدة ، ضدان : الروح والجسد اتفقا على التزود لمستقبل الحيـاة ، على غير علم أنهما صائران إلى نضال .

وكان كل شيء يلج الدماغ ويعمر المعدة مقبولاً حسناً . حَسْبه شَغل فراغ لا يعرف الحد حتى يصيبه ، على مدار الأيام ، السأمُ من حاله الدائمة فيتظاهر بالامتلاء أو يبغضه .

وكان كل ما يشغل الفراغين يثمر . كالأرض البكر تقبل كل البذور وتصلح لها منبتاً ومزدَهراً ، لأنها لم تشْقَ بعد بطمع صاحبها وشهوته ، فكيف تعرف العناء والمقاومة ؟

كنا إلى جانب الإكثار من القراءة والاستماع نكثر من

أكل الخبز وشرب الماء ... أيها القارئ الجوعان مع رِقّة حال، أنت أدرى بفضل الخبز الكثير والماء الكثير .

كنا فى أخريات الشهر نقاطع المطاعم الفرنسية، لأن كسرات الخبز كانت هنالك معدودة . فإن سألْنا الخادمَ غيرها قالت : فوق هذا ؟ encore ؟ . وكانت الخادم تُخرج تلك الكلمة كما يسلّ الظالم سيفه . كنا فى ذلك العهد على حياءٍ عظيم ، فكنا نقول لها : غيرنا السائل ، ولدينا الكفاية

وأما الماء فلا أعرف موقفاً أسمج من موقف الخادم الباريسية تسألك عن صنف النبيذ الذى تريده ، وأنت تشتهيه وجيبك يعتذر . فكنا نشكر للخادم عنايتها بلذة حلقنا ونرجو منها أن تُحضر إبريق ماء ... ولو كان إبريق نبيذٍ لكُنا أمرنا ، ولكن الأمر جُعِل لفئة من الناس ، والرجاء عامّ .

وكثيراً ما كانت الخادم تقول وهى تحمل الإبريق على كره : ألم تستحمّوا اليوم ؟ سؤال لم نر فيه قط فكاهة ، بل قحة من يُطعمك ليفترسك ... أنترشَّف فى الغداء ثمن العشاء ؟

فكنا فى أخريات الشهر نقصد إلى مطعمٍ روسىٍّ فى أقصى الحىّ اللاتينى . مطعم تقودك إليه روائح توابل حارّة كأنها جمعت

من أنفاس أسرى القيصر . وكنا ، أول ما نجلس جلستنا ، نطلب البورش borch . والبورش حساء تلتقى فيه ألوان من البقول بعد تبعثرها فى الحقل — تلتقى هالكةً فى لحد واحد ؛ وتضطرب بينها قطعة من لحم البقر مسلوقة ، عليك أن تُنقِّر عنها تحت لحافٍ مطرَّز : بطاطس يُنمِّقه كرنب . وكثيراً ما يكسو القطعة دهن غليظ ، كأن سالقها ممن يحتشم منظر العُرْى .

وكنا نسرف أحياناً فى الغداء فنظلم العشاء . كنا نستعين على البورش بكأسٍ من الڤودكا vodka . وما أعرف سوطاً للدم مثل الڤودكا : شرابٍ يدور بالحس كقبلة العاهر العاشقة .

وأى طعام يعدل ذاك الطعام : غزير ودسم ولذيذ ؟ وكل شىء لذيذ وأنت فى فتوتك ، حتى الجوع ليلاً إن أنت ظلمت العشاء .

ما أكذبنى !

ولِمَ لا أقول إننا كنا نقصد إلى ذلك المطعم الروسىّ لأن فتيات ، جمعن إلى لمعة النجم لفحة الشمس ، كن يخدمننا فى جلالٍ ويباسطننا فى وقار . وكانت لهن أنامل خُلقت لمسح الوحدة ، ونسج العزاء ، وحلّ القسوة .

قيل لنا إنهن أميرات أو نحو ذلك ، قد اضطُررن إلى الجلاء عن روسية والبلشفيّة ثائرة . وقيل لنا أيضاً إنه يحسن بنا ألّا نناديهن إلاّ مواجَهةً ، لأنهن لا يلتفتن إلاّ مذعورات ، ألم يفررن وخلفهن نار تسابقهن أو رمح يدغدغهن ؟

ثم كان فى عيونهن مِثل وحشة الليل . كان نظرهن ، متى جال هنا وهنا يبحث عن طبق فرغ ، شيئاً تائهاً يجرى فى جوف مدينة . آهِ من تَيهان تلك النظرة ! كثيراً ما كنت أنادى أو أصفّق أو أنهض حتى تستقرَّ لدىَّ فتطمئن ... كانت النظرة تلمح ولا تتمهل . وكيف تستقر عند منظرٍ طارئ وهى منزعجة إلى مرئيّات جلا مرماها عنها ؟... إنما البلاء بعد الجلاء ، يوم تشغلنا الأرض التى ساءت لحظةً فلفظتنا ؛ وهل يُسلَى الحبيبُ المسىء ؟

وذات ليلةٍ كنا نتأهب لدفع الحساب . والتأهب لمثل هذا واجب ، شاق . ألا يسمَّى حساب الطعام فى باريس : الموجِعة ؟ la douloureuse . وبينما نحن نتأهب إذ رجل ضخم لم نره قط يقتحم الباب اقتحاماً : تَتَرِىٌ يهتك خدرا . وكان الرجل مرتدياً لباس سواق « تاكسى » . وكان يتأبط شيئاً مستطيلاً مدرَجاً

فى كيس أسود . يا ترى هل سلب الرجل الليـل سرًّا من أسراره ؟

وما كاد الرجل يرسل لحظه فى صدر المطعم ، والآكلون قد انفضّوا من حولنا ، حتى خفَّت إليه الفتيات الأميرات . فلفَّت هذه ذراعه ، وجسَّت تلك صدره ، ورجفت الثالثة بين يديه . وإذا به يُقبِّل الأنامل ، على كراهية منا ، عاثر الرأس .

انتبذت الفتيات بالرجل زاويةً أهملها الضوء ، وأحضرن له قنينة ڤودكا ، والتففن عليه أزاهير ليل ، وقد نسيننا ونسين «الموجِعة» . وهل ينسى الموجعة فى باريس إلّا المغتربون ؟

سلك الرجل يده فى الكيس وأخرج قيثارًا . ثم أخذ يُصلح الأوتار بالشمال ويَعُبُّ الڤودكا باليمين ، حتى شدَّ القيثار وأرخى الجفن . ثم ضرب وغمز بالإصبع فأسمعنا « اللحن الحزين » لِتشيْكوفسْكِى . فتبسَّم فى الزاوية أذان الطرب ، ونمَّ الظلمةَ لِحانُ الأنامل تطفر وتهبط على رجفان الولَه ودنف الصبابة .

جعل الرجل يضرب ويغمز ، ويرنو إلى الأميرات من طرْفٍ مرنَّح حتى انفلتن من جلالهن . ثم انتقل إلى لحن آخر . فأخذ بعضهن بأكفِّ بعض ، فخلناهن يتضافرن على خطر السماع .

ولكنهن شرعن يرقصن فى حماسة، ناصباتٍ رءوسهن كأنهن نافرات إلى غزو السماء . فطمح نظرنا إليهن يتبصَّر، فإذا بهن يخططن فى خلاء الزاوية تضوُّرَ المشتاق ويرقن على البساط توزُّعَ الْحِسر : تطوُّحٌ فوق وتذبذبٌ تحت ، بينهما تفكُّك وتقلقل رجاوة أن تنسلَّ المحصور من عُقَد الجسم فتهفو إلى مثار الحنين : علَّة القلَق .

ثم أخذت أنامل الرجل تزيد فى اللمحان لارتجاج الهِزَّة فى العروق . فكادت الزاوية تنورٌ ، فتأملنا أرضاً وشتّها وورود تَرجِفها أعاصير الشمال . ثم حدَّقنا ، فلمحنا موكب لوعات العذارى قد ترقَّ نحو الخدود والنحور ، فصحنا :

« تَلِفْنَ ... كُفَّ يا رجل ! »

فوثبت إلينا إحداهن غضبى ، وقالت :

« هذا الدوق فلان . وهـذه رقصة بنات « كييف » . ما لـكم ولنا ؟ مثل هذا الرفق بنا غلطة ... إنما عزائم الحاضر نُهبَى لحُرَق الماضى . »

ولكن الدوق رقَّ رقتنا ، فأمسك عن الترقيص ومال إلى الشدو . فغنى صوتاً روسيًّا مشهورًا ، صوتَ نازح مضَّه التشواق .

طرَّب الدوق ، فتأوَّه القيثار ، وفزعت الفتيات إلى الجدران حَذَرَ التهالك ، وانفجر الإرنان من كل جانب ، ولم نقوَ على تمييز المخرج ... فى تلك اللحظة اشترك الحىُّ والجامد فى النواح على الممكن العاصى .

وفجأةً سكت الدوق وسكن القيثار ، فسمعنا جرْساً كأنما نِساجة من بطانة النفس تنمزق ، فنَهْد ينحلّ بعد تماسك ، وجفن ينفتق ، وكانّ صبرًا ينقضّ وحزماً ينهزم . سمعنا تباريحَ تهمس راجيةً فى أذن القدر الأصم .

سكت الدوق وسكن القيثار ، وخافت القلوب أن تخفق .

سِلْك فى مسرى الروح انقطع ... الصمت من العذاب أحيانا .

خرجتُ وفى صدرى صوت يحزّ[1] :

نوحُ قيثار مغـــترب
سلسل الوجدَ بالطربِ
حبس الأمسَ فى وتـرِ
جُنَّ من جَسٍّ مدَّكِرِ

(١) هذه القصيدة تجرى على بحر وضعه المؤلف، أجزاؤه : فاعلاتن مفاعلتن، مرتين .

سلسل الوجـدَ بالطربِ
نَفْضُ نوْباتِ منجذِبِ
شَـغَلَ العجزَ بالسـفرِ
علَّق القلبَ بالخطـرِ

حبس الأمسَ فى وترِ
واردٌ هبَّ كالشـررِ
من أساطيرَ كالشُهُبِ
رقصت فى دُجَى الحقبِ

جُنَّ من جسٍّ مدَّكِرِ
وترٌ رقَّ للحَسَـرِ
وانصبابِ الهوى اللجِبِ
فى شرايينِ ملتهِبِ

نوحُ قيثار مغـتربِ

القاهرة، يناير ١٩٤٠

مبروك

الليل طردته حاجة الناس إلى التعب .

فمضى الزمن الذى فيه يهدأ البؤس تحت غطاء . والغريب أن غطاء البائس كثيراً ما يشكو الخرق . وأغرب من هذا أن الخرق فى غطاء « مبروك » سُد برقعةٍ لونها ينافر لون الغطاء . . . حتى ساعة الهدأة إن استطاع البؤس أن يتستر فما يحسن .

وكان يحلو لمبروك أن يبرز الرقعة النابية فيُجلس موضعَها فوق صدره . هل أحسّ أن البؤس إن انزوى عن العين كل الانزواء تسللت الرحمة من قلوب البشر ، فتعطل معنى وجودهم لأنهم على الأرض يرثون لحالهم ؟

مضى الزمن الذى فيه يهدأ البؤس وينقبض تحت غطاء فضاح .

مضى الليل الذى من حق الفقير أن يحلم فيه بالسماء .

— « قم ! .. هل ينام الضحى من يعيش بفضل غيره ؟ .. »

— « ما الساعة ؟ .. لعل الحلم غلب عينى ، وهى ليست لى فى الليل ، يا خالتى . »

سلطت الخالة يد حداد على مبروك ، ونتشته من حصيره كأنه شوكة تزعج أنملة حسناء ، ثم هزته بجفوة لتذكره بأنه ابن الأرض... تلك تباشير الصباح لأمثال مبروك !

تضور الطفل وهمّ أن يضج ، فصفعتْه ، فراجعه رشده ... والرشد آفة من يريد الفرار . فأخذ مبروك يفرك عينه حتى انقلع الحلم عنها فنجت من إغرائه ، وثبتت فى الوجه ، لا تهفو فى أثر وهم . ثم تثاءب وتمطط يغالب إنذار النهار .

— « يا مبروك ، لا تأكل اللحم حتى تبيع عشرين ورقة من أوراق « النصيب » ، وإلا فطعامك ما تعلم . »

— « لا سبيل إلى أن أبيع عشرين ورقة فى يوم واحد ، ولكنى أشتهى اللحم . »

— « اشتهاك الموت ! ثمن العشرين ورقة ولك اللحم . خذ

الآن كسرة خبز وقطعة جبن . لا تحسن سوى الأكل يا لعين ، وزوج خالتك يكد من أجلك . أنت تعلم أن الحمال لا يكاد يصيب الرزق . »

دس مبروك الجبن والخبز فى جلبابه . جلباب مفسوخ فى الشمال ، مرقوع فى الجنوب ، فوقه معطف إفرنجى خانته سلّم الألوان كلها سوى أن غبارات القاهرة تطرّزه ... وغبارات القاهرة لا يكاثرها غير المحرومين فى مصر . وكان الجلباب والمعطف جميعاً لا يستطيعان أن يسترا القذارة المفترشةَ أطراف مبروك ، المتسلقةَ عنقه . وكأن القذارة أصابت هنالك مكاناً وطيئاً اطمأنت به فتربعت ، ومبروك راضٍ بها فرح ... كل منا محتاج إلى شىء يستقر فى جوانبه لكى يشعر أن الأرض التى يمضى فيها لا ترجف تحت نقلات قدميه . والشىء المملوك كل الملك أقوى دليل على أنك صاحب سلطان ثابت ، وهل يملك المعدم غير قذره ؟

انطلق مبروك ثم عاد مساءً إلى بيته : معافى يعود إلى مرضه . وما انفك ينطلق ويعود — كالموظف المجتهد عبثاً — وبيع العشرين ورقة من وراء طاقته .

لجأ الطفل إلى سحاب الموهوم ، فشغله عن صخور الواقع

عالَم تزاحمت فيه أنواع الذبائح وأصناف الجزر ... ولو علم أن مياسير الناس متى اكتنز لحمهم من وفرة العلف صلحوا للسكين لَوَطَّد بهم عالمه . كان مبروك غريرا .

— « يا ولد ! »

— « ! »

— « يا ولد »

— « أطال الله عمرك يا سيدى . خذها منى . خذها ، إنها الورقة الرابحة . »

— « لا حاجة بى إلى ورقتك . هل تحمل حقيبتى وهذا الحصير إلى دارى ، فتظفر بأجر ؟ »

وبينما مبروك يدلف والحقيبة تذل ظهره والحصير يتحرش بإبطه إذ عرض له أن الرجل ربما حرمه الأجر . ألم تعِده خالته فى عيد الأضحى الذى مضى بشواء فلم تمكنه إلاَّ من سمكة ؟

بلغ الرجل المكان الذى يريده . تناول الحقيبة فى رفق ، ثم جذب الحصير ، فسأله مبروك يصنع به ماذا .

— « أجعله تحت قدمى فى حجرة النوم . »

— « إنى أنام على حصير تؤكد خالتى أنه كان أصفر، وبودى لو أنام على حصير أصفر مثل هذا . هل تعيرنى إياه لليلة واحدة ؟ »

ابتسم الرجل وما أراد السخرية، ولكنه جرح الطفل .

دس الرجل فى يد مبروك قرشاً، فنظر الطفل إليه مأخوذاً . أيستقل القرش ؟ فسمح الرجل بآخر . فولّى مبروك خشية أن يسترد الرجل القرشين .. من أخبره أنَّ عطف الإنسان أمر طارئ ؟

— « بعنى يا عم من اللحم الذى يأكله زوج خالتى . »

— « هل لزوج خالتك لحم معلوم ؟ »

— « لا أدرى، ولكنى أريد الذى يأكله يوم الجمعة . »

— « وما يأكل يوم الجمعة ؟ »

— « اللحم سبحان الله ! »

— « ولكن اللحم ألوان . »

— « ماذا تقول ؟ »

— « قاطعك الله وغرّب زوج خالتك . قل لى كيف تريد أن تأكله ؟ »

— « أريد أن أجعله على الأرز . »

— « إذن خذ من اللحم المسلوق . بكم ؟ »

— « بقرشين . وإن لم يكن ذلك الذى يأكله زوج خالتى ... اعدل الميزان يا عم ! »

سلك مبروك قطعة اللحم فى جيبه مطمئناً إلى أن الميزان يعتدل على يد بَشر . ثم انزوى ... فى ضمير كل طفل مادة شاعر : استل القطعة وجعل يقلبها ظهراً لبطن : فنان يدير تمثالاً دقيقاً نحته فى ليالى الأرق .

أبى مبروك أن يأكل القطعة من ساعته ، مجاهداً نفسه ... اللذة الكبرى أن نحرم أنفسنا المشتهى مُدة . ثم سلكها ثانية فى جيبه حتى ينثرها على طبق الأرز .

فى البيت سأل مبروك طشتاً صغيراً أن يخفى القطعة ، ثم انطلق . وبعد قليل هبت ريح شديدة ... حتى الطبيعة عدوة المساكين ! نزعت الريح عن النافذة جانباً من الخيشة التى كان وُكل إليها أن تنوب عن الزجاج ... نحن فى مصر . بادرت الخالة إلى النافذة ، ولكن الخيشة استعصت على المعالجة ... غليظ نبا على غليظ . فنظرت المرأة حولها مستغيثة : الطشت يعرض نفسه ،

فنترته ، وإذا قطعة اللحم تفتضح . فهوت عليها دهشة .

عاد مبروك إلى بيته . ولما استخبرته خالته قال : « إن عملاقاً تعرض لى وأنا أجول ، فقال لى : إنى أبحث عنك من زمن ، صاحبنى قليلاً . فأبيت ، فما زال بى حتى تبعته . وما كدت أسايره حتى غاب عنى بغتةً كأنه غاص فى الأرض . فتلفتُّ باسطاً يدى أستعين بالفضاء عليه . وإذا قرشان يهبطان فى يدى ، وإذا صوت يطن فى أذنى: اشترِ قطعة من اللحم واذهب بها إلى خالتك ، فإنها تحبك . »

دنت الخالة من مبروك متوعدة . فحلف مبروك بأغلظ الأيمان إنه صدقها الخبر . فهمت به تريد أن تضربه . فاعتصم بأيمانه يديرها على لسانه ، كما يدير الذكّار خرزات السبحة .

— « إن جزاءك أن ترانى أنا وزوجى نأكل هذا اللحم . »

ولما غابت القطعة فى البطنين ، غياب الأمل فى مجاهل الشقاء ، تقرب مبروك . فدفعته خالته فى عنف ، وسكت زوجها سكوت المذنب ... الرجال أقل صفاقةً من النساء أحيانا .

المولد النبوى !

نسى الطفل همه ... لو نظل أطفالاً لعُمِّرنا !

بينما مبروك يلهو أمام الخيام المنصوبة إذ لمح عصبة من الناس يسيرون منتظمين حتى ولجوا خيمة ، فقبّلوا يد شيخ أكلت الشفاه رقتها ، مستوٍ على كرسى مذهب أخّاذ لأعين الشعب . ثم جلسوا حلقة حلقة ، ووسط كل حلقة قصعة أرز مستسلم للفتك . فاندسّ بينهم الطفل .

نزل الشيخ عن الكرسى المذهب ، وأمر بقِطَع لحم فجعل يوزعها .

تنبه مبروك إلى أن المولد النبوى ليس مجال لهو ، فأخذ يفكر فى محاسن الدين ، ثم حلف لينقطعن إلى العبادة ... وهل يكلف الحَلِف شيئاً عندنا ؟

وبينما الشيخ يفضى بيده إلى مبروك وعيناه مشغولتان بمن يليه إذ هب الرجل الجالس بجانب الطفل واختطف القطعة . صاح مبروك بالشيخ ، فلم يعتدّ به كأن الخيمة ابتلعت الصيحة ، صيحة مظلوم . فقام إليه يجذبه من ثيابه ، فرده ، فتشبث بذيل عباءته : مكروب يستمسك بفضلة أمله .

— « مكانك يا ولد ! »

هم مبروك أن يشرح ما جرى . وإذا الخاطف يسرع :

— « لا تصدقه يا سيدى ... إنه للئيم . »

— « ما القصة ؟ »

جمجم مبروك . فتشجع الخاطف :

«إنه يزعم، ما أحقره ! أننى سلبته القطعة ، ونحن فى مولد النبى .»

التفت الشيخ إلى رجال الحلقة لعله يصيب من يشهد لمبروك أو عليه . وإذا رجال الحلقة يستبقون الأرز ، وقد حصروا حواسهم تحت أضراسهم . فمال الشيخ إلى مبروك :

« لو كنتَ صادقاً لشهد لك هؤلاء الرجال . »

عزم مبروك . ومن يدرى كيف يعزم الطفل ؟ عزم على أن يتشفى من الشيخ الذى نزل عن الكرسى المذهب .

انطلق إلى مطعم ، وأخذ يعرض أوراقه على الجالسين ، فدفعه واحد بعد آخر . . . تلك قصة الشقاء ، نرده لأنه يرقبنا .

وكان الطفل تارة ينظر إلى الجالس وأخرى يلمح إلى طبقه ، وهو لا يدرى ما يصنع : الطبق حبيبه والجالس عدوه ، حتى صار إلى شيخ ضرير يطارد طبقه . فأهوى مبروك بيده لينتشل قطعة لحم نحيلة ضلت فى مرق كثيف : رِدف صبية تلفه ملاءة .

فإذا الطبق ينقاد ليد الشيخ بعد تجوالها ... الأشياء، على خلاف البشر، تنعطف إلى من به حاجة إليها : المطر يسقط قبيل جفاف النبات .

وإذا اليدان تجتمعان على قطعة اللحم : يد ضرير اهتدت ، ويد محروم أصابت . فصاح الشيخ بصاحب المطعم :

« جازاك الله . أتسلبنى الطعام ؟ »

هم مبروك بالفرار . فأدركه صاحب المطعم، ولطمه، ثم دحرجه إلى شرطى مستند فى الطريق إلى عمود من أعمدة المصابيح ، ناعسَ الطرف ، كأن القوم يسهرون عليه .

مضى مبروك وهو لا يفهم لماذا تُمنع نفس أن تشتهى ما تشتهيه أخرى .

القاهرة ، أبريل ١٩٤٠

خريف

الخامسة صباحاً .

اللحظة التى ينشقّ فيها الكون شقّين : جانب النور وجانب الظامة ، يتنازعان العالَم والناس موثَقة الأيدى لا يؤذن لهم إلاّ فى المشاهدة . طال النزاع بين الجانبين ، مرتين كل يوم حتى سئمه الناس . آهِ لو فطن الناس إلى أن هنالك أشياء لا تنفكّ تهمّهم ! كل تنازعٍ على الأرض حرب على الهلاك، لأنه مبعث النشاط : لولا تعارض الآراء لجمد العلم فى مرحلته الأولى ، ولولا اختلاف الفصول لاستعصى نبات على الزارع .

يا ليت جانب العرفان لا تطلع تباشيره ! جانب الجهل أرأف بالعين والنفس والقلب ، لأنه منجاة من الفطنة . وما الذى وراء

جانب العرفان ؟ ماذا يجلب معه حتى نفرح به ؟ يكشف لنا عما لا نفهمه ثم عما نكرهه . إن جانب الجهل أنعم منه، لأنه مدخل إلى العدم، إلى الغاية .

الخامسة صباحاً . اللحظة التى ينشقّ فيها الكون شقّين ، وأنا لا أزال أرقد ...

لا بد للبشر أن يشق بالعرفان .

« قم ! قم إلى الحياة ! قد آن لعينك أن تكتظّ من النور ، ولكن قلبك ينضح بالظامة . »

نزلت إلى الطريق .

الخريف فى باريس ! آخر أيام الخريف .

سماء مغبرّة أبداً كأنها ربة بيت شحيحة الكف تقطّب الوجه متى عنّ لها ذكر ضيف . سماء بكّاءة : قطرات تتعاقب على إيقاع ذى بدوات ، فكأنما السماء تمطر باريسيات ، وأى النساء لهن بدوات الباريسيات ؟ سماء ثالجة : مستودع قطن ينفطر نزقا .

ثم أشجار مسودّة : أشلاء غرامٍ تائهة فى غابة السلوان .

أشجار مخدَّدة عوارٍ : عجائز متجردات . أشجار مصطفة : قطيع من الأسرى يعرضهم ظافر محدَث طروب للمسكنة . أشجار بدموع المطر تبكى رفَّ الربيع ودفء الصيف .

ثم برد يدمع طرف الأنف ، وقد فاته إدماع العين لاشتغالها بقَنَص الحسن ، وما أوفره فى باريس !

تمهلت عند باب من أبواب حديقة اللكسمبور ، فى شارع ڤوجيرار ، أمام مسرح الأُوديو .

مقعد هنالك . جلست .

مقعد فى شارع باريسى ! لو بدا يوماً للحكومة الفرنسية أن تقتلع المقاعد من جنبات الشوارع لقامت ثورة ... ثورة فرنسية . أين يجلس إذن أولئك الباريسيون الذين يخرجون أيام الآحاد فيجولون فى الطرقات حتى إذا كلّوا فتشوا عن مقعد ، كراهةَ أن ينجذبوا إلى تلك المحلات التى تجهل الإفلاس : القهوات ... إن الفرنسيين أئمة الاقتصاد . ثم أين يجلس الحبيبان ؟ وباريس كلها أحبة . أين يجلس الحبيبان على انفرادٍ جلسةً واحدة تكون مدرجة للذهاب إلى غرفة تعلمهما السأم أو الوجد . ثم أين يجلس المتسكع

le clochard ، وأين ينام فى الصيف ووسادته قنينة نبيذ مشتبَه ولحافه حُلم ملتهِب . المتسكع فى باريس رجل ذو سلطان . إنه يزدرى الحياة وهو يحبها ؛ ما أجلَّ بؤسَه !

جلست على ذلك المقعد بتؤدة احتراماً له .

جلس بجنبي رجل لم أتبين وجهه ، لأن الظلمة كانت تودع مهاوى الفضاء . رأيت الرجل يلقى بجسمه على المقعد فى غلظة ، كأنه قضى ليله سعيا . وما ذنب المقعد ؟ ألا يكفيه أنه يحمل الرجل ؟ آهِ كيف نعنف بما يعيننا !

سمج الرجل فى عينى ، فأدرت وجهى عنه ، ورصدت طرفى أرقب رفيف العرفان . وبينما أنا أفتح عينى للنور المتسلل من وراء المنازل والأشجار كأنه عكازة يمدها إلىّ حكيم مجهول ، إذ الرجل إلى جنبي يبكى ، يبكى .

من الذى يبكى والنهار يُطلّ ؟ هل يبكى الجهلَ ؟ هل يبكى العدم ؟

رجل إلى جنبي يبكى .

نظرت أمامى جامداً ، غضِباً للمقعد ، وإذا مسرح الأوديو يفتقه النور .

مأساة تجرى فى الطريق العام ، على مقعد مبذول ، إزاء الأوديو ،

فما الذى يجرى على مسرح الأوديو ؟ أين المأساة الحق ؟ أيا ترى الأوديو هو الطريق العام ، والطريق العام هو الأوديو ؟ ولكن هذا البنيان ، وهذا الإعلان اللاصق بجدرانه : عنوان المسرحية ، واسم مؤلفها ، وأثمان الكراسى ...

أين أين المأساة ؟

عَرض لى أن أقبض على الرجل وأحمله إلى داخل الأوديو وأجلسه على المسرح ، وأجلس أنا فى القاعة أملأها وحدى وأشاهد . إن ذلك يكون أخفّ محملاً على سمعى وألطف ضرَباناً فى قلبى . ولكن هل يَرضى هو أن أُعلم الناس بحاله فأعانها على جدران الأوديو ، وأن أدفع ثمناً لمشاهدته ؟ هل يرضى ؟

رجل إلى جنبى يبكى .

ولِمَ يبكى بحضرتى ؟ ألا يستحيى ؟ هل يأمل منى مؤاساة ؟ لن أفعل ... قد جرَّبتُ فتعلمت : مررتُ ذات ليلةٍ بمثل هـذا المقعد المظلوم ، وإذا متسكع آخر عليه ينشج . فانعطفت إليـه . وإذا الرجل سكران ، وإذا به ينظر إلىّ مزورًّا ، وهو يلوك صِمَامَ قنينة نبيذٍ فارغةٍ ، مضمومةٍ إلى صدره : رئةٌ مهدَّدة يحرص عليها مصدور . دعوته إلى شراب كأسٍ فى قهوة قريبة ، فأنس بى وتبعنى ،

فأخذت أستطلع ، فقال :

— « كنت أملك حانوتاً فاخرة تصنع فيها ملابس النساء . »

— « وكيف انتهيت إلى هذه الحال ؟ »

— « امرأتى وأخى . »

— « كيف ؟ »

— « هل تدعونى إلى كأسٍ لتقتلنى ؟ »

منذ تلك الليلة لم أعنَ بمن يبكى ... تريد أن تواسى الناس ، فيغضبون .

ولكن ، ولكن هل أردتُ حقًّا أن أواسى ذلك المتسكع ؟ هل كنت منعطفاً إليه ؟ أيستطلع مصدرَ البؤس من يرقّ للبائس ؟ قال المتسكع : « إنى أردت أن أقتله » ... المطعون أعرف الخَلْق بموارد القتل .

نهض الرجل الذى كان يبكى إلى جنبى ، فالتفتُّ إليه ، وإذا به يقول :

« العفو يا سيدى . » Je vous demande pardon monsieur.

أيطلب العفو منى ؟!

ماذا صنعتُ ؟ لم أقل شيئاً . عجيب ! الصمت والحديث كلاهما يجرح البائس ...

أدركت بعد ذلك ، بعد أن بكيت أنه أراد العفو عني ... لا بد للبشر أن يشقى بالعرفان .

ثم أدركت أن بين الحديث والصمت حالاً لا شأن لها باللسان .

« قد آن لعينك أن تكتظَّ من النور ، ولكن قلبك ينضح بالظلمة ! »

باريس ، نوفمبر ١٩٣٧

ملك النهار!

فررت من مصر وضوضائها ؛ والفرار من الشجاعة أحيانا .

فينا من يخشى أن يخلو بنفسه ويجلس إلى السكون : إلى العَدم النابض ، فيتأمل ... إن فى الوحدة ابتلاء النفس ، وأى النفوس المحصَّنة ؟

والناس يعرف بعضهم جبن بعض . لذلك فرشوا القهوات واستنبطوا الملاهى ، وبنوا دوراً للسينما والمسرح والرقص وغير ذلك ؛ ثم شقّوا الشوارع ووطّأوا الطرق ، لينعم بها الحيران فى سبب وجوده : من جهل أنه وُلد ليموت حيّا .

فى الشارع لا تحسّ أنك صاحب نفسٍ حُبستَ أنت على جوهرها وتفرَّغتْ هى لك . فى الشارع لا تَتمّ الخلوة بينكما :

أنت تجاوزها إلى وقايتها الخطرَ لأنها فرصة دائمة للسيّارة المنطلقة باحثةً عن شهيد ، وهى تجاوزك مشغولةً بغيرك لأنها نهبة سائغة للحسن البارز عن يمينك أو يسارك ... الشارع منفلَت الضمير العاجز عن مراجعة شئونه .

إلى البلد الذى يقول : « هنا كانت أُمَّة » . إلى الأقصر .

ركبتُ قطاراً عُشره للأكابر . وسائر أعشاره للخلق ، لصرعى الضرائب ؛ وكنت فيهم . فقضيت ساعات أغالب فيها البرد ، وتحت رأسى ثلاثة كتب ترفعه ليلًا بتراكم صفحاتها ، بعد أن رفعَته نهاراً بتلاحم حروفها ... إن الوسادة الرخوة من حق عشر الركاب وحدهم . أَلِرخاوة فى رءوسهم ؟

وصلت والفجرَ أُعينه على إيقاظ بواب الفندق ، وأنا عجِب كيف لا تسهر الأقصر كلُّها على كنوزها ؟

خرجت من الفندق قبيل مغيب الشمس ، أطلب منظر اغتسالها فى النيل . وكأن الشمس فى مصر مؤمنة تُصرّ أن تمضى على طهارة : الإسلام دين الدولة ، والشمس بعد أن كانت ربّةً تعبد صارت من الرعية ، تجرى عليها الأحكام . . . كل شىء فى مصر

مصيره الذوب فى الكتلة ، كتلة الطين ، طين النيل .

وما كدت أخطو فى الطريق خطوتين حتى تعرض لى رجل مجدول الأعضاء ، خرج من وراء تمثالٍ لفرعون منصوب عند ضفَّة النيل . وكان التمثال على حاله الأولى ، لولا التاج عن الرأس هوى . أإنذار لحاكمٍ آتٍ ؟

وكان للرجل عنق منساق حوله عقود شتى . وكان معصمه الأيسر يحمل عقوداً أخرى يطوِّح بها فى الفضاء كأنه يَهِمُّ أن يسحر النيل . فنظرت إلى الرجل ، فإذا فى عينيه سُلَّم أضواء ، من الأبيض حتى الأرجوانى . فكأنما طول تحديقه إلى عقوده ، وهو يزيِّنها للناس ، ترك فى مقلتيه بريق الأحجار ؛ إلا أنه كان بريقاً كاذباً . . كانت العقود زائفة ، وكان الرجل دميما .

قال الرجل :

« ألا ترى إلى هذا العقد كيف يضيء ؟ خذه ، فإنى والله مترخِّص فى ثمنه ، إذ هلك النهار ، فلا أمل فى البيع ، ولا بدَّ لى من قليل مال أعود به إلى عيالى . إن هذا العقد لقديم ... هل أكاشفك بأنى عثرت عليه فى كهف لم يدخله

أحد منذ ثلاثة آلاف سنة ؟ وهل ... ؟ »

— « دع الكذب يا أخى . وخبِّرنى ماذا تصنع فى الصيف ، أيّامَ ينفضّ عن الأقصر السيّاح والزوّار ؛ فيدَعونها للزمن الدائر يحار فى عناد آثارها . والصيف فى مصر ، ولا سيما صعيدها ، يأكل ستة أشهر أو سبعة من سنة بنا حاجة إلى كل يوم من أيامها . يأكل الصيف كلَّ هذا ، كأن لم تكفنا أيام الأعياد وهى متواليات ، تسبقها أيام يفتُر فى بعضها الجسم ويكسل الذهن ، وتليها كلها أيام استرخاء ، كأنما الذبائح تنتقم فيها من الذابحين . ثم يوم « شم النسيم » ! وما هو بوحيد سنته . »

— « ماذا تقول ؟ لا أستطيع متابعتك . لا أفهمك . »

— « سوف يستطيع ابنك إن شاء الله ، يوم تجدّ الدنيا . قل : ماذا تصنع فى الصيف ؟ »

— « أخرج من فصل السياحة وبين يدىّ نحو عشرين جنيهاً ، فأعيش بها أنا وأهلى سبعة أشهر ، نداور فيها بطوننا بيسير القوت ، وندْعك ثياب الشتاء بأجسامنا الخشنة حتى تنعم لزمن الصيف ، ونصنع العقود . الصيف يا سيدى كابوسنا ، نغالب فيه الشدة ونحن قعود فى البيت . »

— « ألا تجد عملًا ما ؟ »

— « ماذا تريد أن أصنع ؟ حقًّا أنا تاجر حقير ، ولكنى تاجر . فهل أعمل فى الحقول أو فى الطرقات ؟ ولِمَ أعمـــل ، وعندى ما يمسك بدنى وأبدان عيالى ؟ »

— « والمزيد ؟ »

— « المزيد ليس لى . إن فى الناس من خلق ونصيبه الضنك . هل أشتهى المزيد وأنا أدرى أنى مهما أكدّ فلن أملك مثل هذا القصر الذى تلمحه عن يسارك . إن صاحبه لا يستطيع حصر أرزاقه ، وابنته تركت زوجها لفرط جشعه . إن وفرة المال يا سيدى ورطة ، ومثلى يميل إلى السكينة ؛ وإن كان فى السكينة خمول . »

— « وما عزاؤك ؟ »

— « بعد دينى وأهلى ما عندى من الأخبار . وما يصل إلى يدى من الصحف . »

— « وما الذى عندك ؟ »

— « إنى أعرف أشياء تجهلها أنت . هل تدرى أن قدماء المصريين اخترعوا طيارات تشقّ طبقات الجو بقدرة آمون ،

وأساطيل تجرى من غير محرك بمشيئة أوزيريس ؟ »

— « ومن أين لك هذا ؟ »

— « تلك أشياء نتلقنها ابناً عن أب . »

— « وما رأيك فى السياسة ؟ »

— « أنا فيها مستقل. كرهت الأحزاب، لأن الأحزاب قائمة على الرءوس . وما تكون حاجات الأذناب إلى جنب شهوات الرءوس؟ »

— « وما رأيك فى البرلمان ؟ »

— « أنت تريد أن تجس هواى . »

— « إنما أريد أن أعلم السبب الذى من أجله لا ترشّح نفسك للبرلمان . »

— « لو كان فى يدى مال لفعلت . »

هنا مال الرجل علىّ وأخذ يسرّ :

« الذهب يا سيدى والفضة ... بفضلهما تجرى حركات الأرباب ؛ ولهذا تعجز الحركات عن السلامة من الزيف . هل رأيتَ شيئاً ثميناً يرحمه الغش ؟ إنما القيمة الرفيعة ذنب : ألا ترى تطاول الحجارة التى أحملها ؟ »

تمهل الرجل كأنه جُهِد ، ثم أتمّ فكرته :

« آهِ لو طرق البرلمان من يشاء ! إن فى رأسى خطة إصلاح . »

— « وما هى ؟ »

— « العفو يا سيدى، هذا سرّ... سرّى . حتى بمال لا أفشيه... أنا لا أبيع سوى الزائف . »

— « وأنا ما أردت أن أشترى سرك ، وهو حُلمك ، لأنى إن اشتريته فما الذى يتبقى لديك ؟ ولا بدَّ لك أن تملك شيئًا متى نظرتْ إليه عينك نجت من بهرج الغش . و إنما أردتُ أن تُلقى إلىّ بسرّك ، فربما شهرتُ أمرك ، وأنا رجل يكتب هنا وهنا . »

— « يا قوة الله ! قد خدعتنى . بحياتك لا تذكر شيئًا من هذا . ولا تلفظ اسمى — واسمى منصور — فإن مأمور الأقصر إذا درى بذلك عاقبنى . أنا أبيع العقود ، ولا شأن لى بالسياسة ... ألا ترى إلى هذا العقد كيف يضىء ؟ إنه لقديم ، ورجائى منك أن تجعل بينى و بين نفسك أنى عثرت عليه فى كهف ، وأنى ... »

تناولت العقد ، ونقدت الرجل ما نقدته . ثم تأملته ينصرف إلى عياله فرِحًا ، وقد عبث شعاع الشمس المحتضَر بحجارة عقوده اللئيمة ...

ودّع بصرى سذاجةً واستسلاماً وقناعة.

« هلك النهار ! » ذلك ما قاله الرجل أولَ ما عرض لى ... هلك النهار ! ومن قبلُ هلكت أمة ؛ والنهار يعود غداً ، والأمة متى ؟

الأقصر ، فبراير ١٩٤٠

بقال قمة

كنت أنا وصديق زكى .

ذات ليلة صيف كنت أنا وصديق زكى فى صحراء — والصحارى فى مصر كثيرة . كنا فى صحراء كلها جلبة كأنّ سوقاً قامت فيها . وكانت السلع أدمغة ، ولا شك أنها كانت فارغة ، أفرغ من قلب حسناء منعَّمة ، أفرغ من جيب بخيل خرج خطأً إلى التنزه ، أفرغ من كتاب يؤلفه وزير آتٍ .

وكانت الأدمغة مزيّناً ظاهرها ، مِثل أحذية من الورق المقوّى مطرَّزة الجوانب والأطراف ... أذكر أنى ذات يوم لفت نظرى وأنا أسير فى شوارع برلين حلوى معروضة على باب مخبز ، فحملتها ودخلت المخبز أنقد صاحبها الثمن ، فأخبرنى الرجل بأنها مصنوعة

من ورق مقوًّى على سبيل الأنموذج ، ثم دفع إلىَّ حلوى على شكلها ولكن تؤكل .

نماذج أى أدمغة تلك الأدمغة الفارغة ؟

وأكره شىء فى تلك الصحراء أنْ لا بئر فيها : رمال ثم رمال من الأرض حتى الأفق . وكأن الرمال تعاقدت على أن تملأ الضلوع من طريق التنفس ، ولا أدرى لِمَ لم تتعاقد على أن تملأ الأدمغة الفارغة ما دامت تريد الفيضان ... كانت الأدمغة لا تقبل شيئاً حتى الرمل .

كدت أنا وصديق زكى نختنق . فشربنا مما كان يشرب القوم : شراب لئيم كدِر ، آخر جرعة منه حرّاقة كأنها بقيّة بغض . أين البئر نرتوى منها بغمزة ؟.. فى كتاب قديم ، أظنه من كتب الهند (أتعرف أن الهند أبعد الناس حكمة لأنهم يشتهون الذى لا نهاية له ، فلا يصرعهم الملل ؟) — فى كتاب قديم قرأت : « الرى أصل الطمأنينة . »

كنت أنا وصديق زكى فى قهوة تعدّت على استقلال الشارع وليس فيها امرأة .

إن صديق الزكى أديب .

ها ! ها ! أديب .

والأديب فى مصر قرآن تائه فى خزانة أسقف كَنْتِرْبِرى فى انجلترة ، ضفدعة بينها وبين الترعة مثل شارع الأوبرة فى باريس — وهو شارع قصير ، إلا أنى كدت أُدهَس فيه إحدى عشرة وخمسمائة مرة .

أديب فى هذا الشرق ... مسربه جدول هادئ وهو محتاج إلى سيل يجرفه .

مسكين ! كيف يقوى صديق زكي أن يظل فى تلك الصحراء . ولكنى لا أجرؤ أن أسأل صديق عما يصنع ، وإن بدا صنيعه غريبا . إنه علمنى ألّا أعجب من شىء ، لأنى — كما يقول — لم أعجب بعدُ من وجودى .

« هل تدرى لِمَ ضحكتُ ساعةً أمس ؟ » هذا سؤال يطرحه زكى ردًّا علىّ كلما عجبت من شىء يصنعه . ومن أين لى أن أدرى لماذا ضحك ساعةً أمس ؟

— « إنى غير راضٍ عن نفسى الليلة ! »

— « لِمَ يا زكى ؟ »

— « لأنى أنتظر عليًا الحوذى »

للحوذية فى مصر دولة مستقلة . أثر من آثار الماضى يأبى أن يستسلم للواقع فلا يُعدّ العدة للمستقبل . ومن تلك الآثار التحمس فى العقيدة ، واستخفاف الرجل بقدر المرأة ، واستمساك الطربوش برأسٍ أَلِف الضنك ... مصر وأخواتها تسير وأعينها محوَّلة فى حسرة إلى المكان الضيق الذى تخطته من باب الظن .

الحوذى عندنا يرقب انقراض جنس السيارات فى اطمئنان لا يعدله سوى اطمئنان امرأة تتحين هلاك الحر لتغيب فى فروتها النادرة .

الحوذى عندنا رجل غريب ، جمّاع أعمال : ينقلك من مكان إلى مكان على حسب تحديد مهنته ، ثم يقود بعض النساء إليك ، ويرد لك مقعد عربته سريراً وطيئاً ، ويبيعك « الحشيش » و « المنزول » صديقيك وعدويك فى آن ، ويدلك على « فتوات » الناحية ، عند الحاجة ... الحوذى عندنا شىء ثمين .

وإن كان رثَّ الهيئة فجاراة للمدنية التى نشأ فيها . وإن قسا على حصانيه فلقسوة المجتمع عليه ... الضعيف ينتقم من القوى على

حساب من سُلبتْ إرادته : ألا تثأر المرأة من عشيقٍ خشنٍ بتعذيب زوجٍ رخو ؟

وعلىّ الذى كان ينتظره صديق زكى حوذى ظريف ، أنيس. وكانت بينه وبين زكى مودة . لقيناه يوما فى « ميدان الأزهار » متسلقاً عربته (أليعلو على سواق « التاكسى » ؟) فما كاد يلمحنا حتى انحدر إلينا من أوجه التعِس ، ضاحكَ الوجه . شبَّك كلانا يده فى يده ، ثم دعانا إلى « الجـوزة » فى قهوة هنالك . فأبيت حَذَرَ أن يرانى أحد « أدخِّن الجوزة » مع حوذى علانية . وإذا صديق زكى يغضب سرًّا للحوذى رعايةً لإحساس فقـير يود أن يكرم غنيًّا ... فقير يود أن يكرم غنيًّا ! معطف شاحب مقطوع النفَس مشتاق إلى بذل رمقه على كتفى فتاة خطَّافة الحسن .

أمر زكى بجوزتين دفع إلىَّ إحداهما ، « فدخَّنا » مستندين إلى جانب العربة . وعنـد آخر نفثة ساق زكى الحوذى إلى القهوة ، وأمر بقدحين من « الكونياك » القتّال ، وقد أهملنى واقفاً فى مكانى متعثراً بكبريائى .

شربنا كثيراً . وكثيراً ما سمعت عليًّا يقول لى ، لغير داع : « إنى فقير ، لاتؤاخذنى يا سيدى . »

تلك الليلةَ علمت أن المال لا تزال له قيمة فتاكة بالأنفس عندنا . فنظرت إلى علامات رفاهيتى والقلب مصْفَرّ ، ثم علمت أن الفقير أهشّ عُودًا من الغنى ... ألا ترى الريح كيف تعصف بالشجرة الجرداء ؟

لم أرَ زكيًّا ينقد عليًّا مِلِّيماً قط . أليس زكى صديقه يجالسه وينادمه ؟.. الصداقة إنما تصيبها عند من يحب على نحو ما يأكل ويشرب ، عند من يجهل كيف يحسب للأمور حسابًا مُحْكَماً ، عند من لا يطيل التفكير ... هل نسيت الطفل ، والكلب ، وغيره من الحيوان إذا شرفك بالأنس إليك ، ثم المرأة إذا مسحت الغرور عن وجه قلبها ؟

— « إنى غير راضٍ عن نفسى . »

— « هل من سبب يا زكى ؟ »

— « اسمع . إنك تعرف لِمَ يأتى على . »

— « هل أصابتك التقوى ؟ »

— « لو أصابتنى ما وجدتْ مكاناً تستريح فيه . أتدرى ما أصابنى ؟ شىء أخف ظلاً من التقوى ، ولكنه أبعد خطراً .

كتمتك أنى ألقى من حين إلى حين فتاة أظنها من العامة ، لا تقرأ ولا تكتب ، تأكل كفلاحة وتلبس كخادم . ألقاها فى تلك الحديقة التى قررت حكومتنا فى لحظةِ فطنةٍ طارئةٍ أن تغرسها على هيئة حديقة « الحمراء » الأندلسية .

« كيف عرفت الفتاة ؟ أصبحت لا أذكر . المهم أن تستلذ طعم الكباب ، لا أن تعرف كيف يُشوى .

« كيف ألقى فتاة لا تقرأ ولا تكتب وأنا أديب حتى طرف أنفى ؟ ألا ترانا نطير إلى الريف المغبّر أو الجبل المشوّك ونحن أهل حضَر ؟ وما يهمُّنى إن أكلت كفلاحة ولبست كخادم ؟ المظاهر أدعها لمثلك ، لمن ترفّ عينه ولا ينتفض خاطره ، لمن تُعجزه لطائف الحس . . . أنت تدرى أنى نُشِّئت وراء المحيط .

« ولو تعلم أى حديث يجرى بينى بينها ! لو سألتنى الآن أن أعيد منه حرفاً ما قويت ، لأنه حديث الساعة ، يولد ويموت بانفراج الشفتين والتئامهما . وما أشبهه بالليالى التى يرتجلها المغنى ! تأخذك أخذاً ؛ فإذا انتهت تلمستْها لهاتك عبثاً ، لأنها إنما تجتاز الأذن تطلب الملاذ عند ما لا وصول إليه ، عند مكمن الغبطة الباطنة .

« بشيء واحد محسوس أخبرك . إنها تعلمت على يدى أن تخطَّ اسمى ، تخطه على الرمل بعصاى (إنك تعلم أنى لا أفارق عصاى لأنها أوفى نسائى) ، تخطه على تذكرة « الأوتوبوس » بقلمى الأحمر (وأوثره على الأسود لأنه يذكرنى بالدم الذى لا أزال مضطراً إلى فجره من بين العروق النافرة حتى أحيا) .

« ابتسم يا أخي ، بل اضحك ليس بينى وبين تلك الفتاة سوء . إنها منى بمنزلة كتاب هجرته الحروف ، يَقفنى كل يوم على مطلب . أجلس إليها فكأنى أسامر فكرة . وتجسّ يدى فكأنها تتبين رؤيا . كلانا إلى رفيقه منجذب مع أنه يجهل لقبه وصناعته ومرتبته . صدقنى ، الجهل أن تكون على ثقة بأنك تعرف نفسك ، فكيف تعرف غيرك ؟ »

باريس ، أكتوبر ١٩٣٨

المرأة

فى القصر يروعك الرواق الممدود والجدار المنساق والسقف المقبَّب ، ثم الطنافس نُسِجت من أنفاس العشاق ، والمصابيح انسلَّت من بسمات القمر ، والأسرَّة كأنَّها من عضل الزنج منحوتة . فإذا طرْفك تَنهكه الغلبة ، حتى إذا انتهى إلى الخِدر ، واختلس أسراره ، كان كالسنبلة تَلطمها السَّموم فيغيثها البلل .

الخِدر ! زهر مطروح ، وإبريق بقى نصفه ، وكأس تنظر أين راشفها ، ومقعد مستدقّ ولكنه وثير ، ووساد كأنه خدود جُمعت ، وباب هنالك تدفعه بنفثة .

كانوا ثلاثة فتيةٍ تضمهم شقَّة وضيعة فى بلدة من جنوب

فرنسة : ثلاث عزمات تبحث أين تفيض ، ثلاثة صدور تشتهى الحرج . وكانت الشقة فى أعينهم قصرا ... الأشياء تعظم بقدر ما يتطاير إليها من شرر الحياة التى نحياها ، وحياة الفتية لهب .

وكانت لهم جارة من بلدان الشمال تسكن غرفة صغيرة أحجمت الشمس أن تزورها ... كانت الفتاة شقراء .

للشمس أحوال غريبة ، ألا تراها تزيد فى سمرة السُّمر وتفزع من لفح الشقر ؟ لذلك تنهض من ناحية المستسامين المستكينين وتدنف على أبواب الأباة الشُّم ... الشمس منجذبة إلى من يرضى بسلطانها . أليست من الكائنات ؟ والكائنات ، على رأسها الانسان ، لا تبطش إلا بمن ينقاد لها .

كانت الفتاة شقراء ، فأحجمت الشمس أن تزور غرفتها .

ما ألذَّ الصعود فى السُّلَّم ميعاد الغداء أو الكبكبة فيها ساعةَ الانطلاق إلى العمل !.. السلَّم مَجسُّ النشاط ، وإن لم تكن كذلك فلماذا صُنِع ميزان الحرارة على غرارها ؟

السلَّم حيلة من حيل الحياة الجياشة ، لأنها مكان تكثر فيه المفاجآت . فى السلَّم لقى الفتية جارتهم غير مرة . فتارةً فسحوا لها

فى الصعود ، وأخرى استأذنوها فى الكبكبة ، وثالثةً حيَّوها . حتى جاء يوم كان أحد الفتية يختصر فيه دَرَجَ السلَّم ميعاد الغداء ، فيقفز قفزة القِط المبتَلّ . فإذا به يصدم الفتاة — وهل تُصدم فتاة ؟ — وهى راقية فى بطء ووهن . فتمايلت تمايلًا شديداً وانتثر من بين يديها بطاطس وجزر وطماطم : انتثر غداؤها الضامر . ضمها الفتى يقيها العثرة ، ثم لملم عناصر الغداء ، وأدخل الفتاة « القصر » ، وسقاها نبيذاً موكولًا إليه التنشيط والترويح ولما أقبل صاحباه وعرفا ما جرى اعتذرا عن الفتى الأهوج ، وكادا يسبّانه . فأمسكتهما الفتاة ، وحلفت إنه غير جانٍ وإنها المذنبة ، إذ تصعد فى السلّم فى استرخاء شديد ، ساعةَ يحسن بالمنقلبين إلى بيوتهم أن يسرعوا ، وشرحت لهما أنها لا تسرع لأن غداءها لا ينتظرها . ثم عَلَّقت : « وأى منتظِرٍ أثقل إلحاحاً وأقصر صبراً من غداء قيل له يتهيَّأ فى وقت معلوم فتهيَّأ . المأكول ينتقم من الآكل إن تباطأ أو تردد . » وزادت الفتاة أنها كانت مقلقلة الخطا وهى صاعدة ، لأنها كانت تفكر كيف تعالج هذه المرّة بطاطسها وجزرها وطماطمها ، فلا ينتهى تفكيرها إلى غاية .

قال الفتية فى صوتٍ :

« واصلى التفكير غداً . هلُمىِّ . هذه مائدتنا قد فُرشت ، وهذا الغداء يستريح عليها . هل ندع المأكول ينتقم من الآكل ؟ أسرعى ، أسرعى . »

أخذت تتردد إليهم ، وجعلت تؤنسهم فى قصرهم ، وترعى بعض شئونهم . وكانت تعنى فوق كل شىء برفو الجوارب ... وآفة العزوبة خرق فى الجورب .

أجمع الفتية على أن يقفوا لها حجرة فى « القصر » ، تأتيها متى تشاء ، وتصنع فيها ما تشاء . وكانت الحجرة غاية فى الضيق ، إلا أن الشمس كانت تغمزها صباحاً لتعانقها فى الظهر . ولكن الفتاة لم تجلس قط فى الغرفة ظهراً . فسألها الفتية عن ذلك فقالت : « هذا شىء لم أكد أعرفه وأنا طفلة ، ومن يُدرينى ؟ لعل الشمس تضرنى ، وإن قيل غير ذلك . فى اعتقادى أننا لا نحتاج إلى ما لم ننشأ عليه . »

سمّى الفتية الحجرة « الخِدر » . فلم يدخلوه والفتاة غائبة . فإن عمرته بنَفَسها استأذنوا عليها . وكان كلهم يودها ، وودُّ الفتى حب خالص ... الحب شعور مندفع من نقطة إلى نقطة فى خط

مستقيم ، مسراه حيزٌ خالٍ . الخلاء وحدَه منجاة من الفساد : ألا يرى الفلاح ، وذهنه أجوف ، سعادتَه فى شقائه ؟ وذهن الفتى الغِرّ هل يعرف كيف يُبَيِّت النيّة وكيف يتصنع ؟

كانت الفتاة خير مهدئ لأنفس حيارى وثّابة ، لأن كلماتها كانت تنبع من ناحية البديهة النسوية : حديث يَقطر من بين شفتيها كالماء يسيل من بين الرخامتين قليلًا قليلا : ماء رائق مُحْيٍ . وكان حديثها إذا تعدَّى القَطَران جرى مجرى اللحن الذى يرمز فلا يُثقل : تنطق من طريق الإشارة : لمح وغمز وتلويح ، مع رفق اللمس إذا وجب اللمس ؛ ولمس المرأة من نبضان القلب ، وكل صادر من جهة القلب قتّال . فكأنما الحياة والموت امتزجا على وفاق فى ذلك الوعاء النّضاح : قلب تلك المرأة الشّمالية .

كانت الفتاة فوق ذلك تطوى سرًّا من أسرار البشرية الساهمة . ولم تذكر من أمره شيئًا ، والسبب قريب جدًّا : إنها لم تعلم أنها تطوى سرًّا . فاختلف الفتية الثلاثة فى سهوم الفتاة ، كالليل يضمنا فى ملاءته . ويفوته أن يطلعنا على غرضه ، فنؤوله كل منا على هواه : هذا يصلّى ، وذاك يفجُر ، وثالث ينام ، وآخر ينظم الشعر ...

اختلف الفتية فى سهوم الفتاة . هلّا تركوها وسرَّها ! ... الأسرار إذا لامسناها قذفت بنا فى أحضان أخواتٍ لها : الصوفىُّ يبحث عن الله فيتَّحد به لحظةَ الوجد ، فما الوجد ؟ والرجل يفنى فى المرأة ساعةَ التطام الحِسّ ثم ينبذها ، كيف يعود إلى نفسه بعد أن هلكت فى غيرها ؟

انقضى ذلك اليوم ولم تخرج الفتاة إلى خدرها .

وفى صباح الغد صعد البواب إلى الفتية ، وأخبرهم أن الفتاة غلّقت باب غرفتها وأوصدت النافذة ثم استلقت على سريرها وفتحت محبس الغاز ، فماتت .

أنبأ البواب الفتية بذلك النبأ كأنه ينقل خبراً شاذًّا تائهاً فى عمود لصحيفةٍ من صحف باريس .

سقط الفتية للنبأ وصاحوا وقاموا يسألون ويسألون . فلم يُجب الرجل مشغولاً بالتفكير فى جلب مستأجر جديد ، ثم انصرف . وعند زاوية الباب التفت إلى الفتية :

« إن قاضى التحقيق فى غرفة الفتاة ، وهو يريد أن يستفسركم أشياء . »

نظر الفتية بعضهم إلى بعض ، وأمالوا الرءوس . ثم قوى أحدهم على أن يقول :

« أجل كنا نعرفها ونودها ، ولكن ما شأننا وقصة انتحارها . ليس لنا يد فى ذلك ، فلِمَ نُسأل ؟ »

فتشجع آخر :

« لو كنا نعرف أنها صانعة الذى صنعت ما أنسنا والله بها كل ذلك الأنس . إنْ طلبنا القاضى فله فى ذلك شأن . أى شأنٍ يكون ؟ »

قال الفتيان قولتهما ، ثم أقبلا على صاحبهما :

« وماذا تقول أنت ؟ »

انطلق صاحبهما إلى الخدر ، فأطبق النافذة وأغلق الباب ثم عاد إليهما وجلس بينهما . فهدأت الألسنة ريثما تراجع القلوب شئونها . ثم انطلقت :

— « اندسَّت امرأة فى حياتنا ، فجلبت القلق معها . »

— « ألم تقرأ أن المرأة انتُزعت من ضلع تختلج ؟ المرأة خلقت من قلق . »

— « صدقت ، كلها قلق : ردفها رجراج ، وصدرها وثّاب ،

والحركة التى تثيرها فى النفس ضرّابة كالجرح . »

فانخفض صوت الذى أطبق النافذة :

« النساء رعدات فى أعضاء هامدة . »

فعلا صوت :

« فى أعضاء هامدة ... نحن الرجال ! نحن الأعضاء الهامدة ، ونرفض القلق الذى تورثه تلك الرعدة ... إلى القاضى ! إلى القاضى ! »

وفى الطريق إلى القاضى سئل الذى أطبق النافذة :

— « قل : ماذا صنعت فى الخدر ؟ »

— « منعت الشمس زورتَه من اليوم ليسودَّ محراب قصرنا ! »

— « أحسنتَ فى إغلاق باب الخدر أيضاً . إنى أخشى أن يهجم علينا شىء منه ... ماتت الفتاة . هل فنِيت ؟ »

القاهرة ، فبراير ١٩٤١

جبل!

فى زاويةٍ من زوايا الأرض جبل طال طول تمنى الفقير وسأم الغنىّ . جبل اشتد اشتداد شهر الصوم على المتكلفين ، والناس يحذقون التكلف لأن الفطرة سلامة .

جبل هبّ شامخاً أملس جرداً : رمح ركزه ربٌّ أعياه خلق لا ينزجرون .

كان الجبل سيّد أهل الزاوية : يستقبل أعينهم كل صباح فيحدّ من مرماها ، ويعكس عليهم شعاع الشمس فيشترك فى اللفح ، ويصدّ عنهم الزعازع فيهدئ ليلهم : مصدر طمأنينة وصاحب غلبة .

كان أهل الزاوية لا يرفعون الأبصار إلى الجبل إلا وأكفهم مفروشة فوق حواجبهم . وإن تجرأ الطرف وانفسح ، فعلى

سبيل اللمح : كان الجبل يمزّق عزم العين . ولولا هـذا الجبل الشامخ الأملس الجرد ما كان أهل الزاوية على تلك الحال من الدعة والرقة ... لا بد للناس من شيء يهددهم بالسحق ، من شيء متماسك مع تطاول حتى تلين أنفسهم .

كان الجبل مصدر طمأنينة وصاحب غلبة .

وكان الشُغلَ الأكّال للأذهان : على رأس الجبل بيت منقور ، نقره شيء مجنّح هوى من ناحية السماء ثم بذر فيه حَبَّ عشبٍ أبيض ، قصير الورق ، من أكل منـه وهو ندٍ في منبته ظفر بالحياة الأبدية ... السماء تستهوى الخلق أبداً ، وتارةً تغويهم ؛ السماء جزء من الكون ، والكون بهرج .

والطريق إلى ذلك البيت المنقور وعر ، معضل . والتصعيد فيه خُدعة من خدع الموت . ولم يقوَ على بلوغ البيت من أهل الزاوية سوى اثنين . وقد عاد أحدهما كسيحاً من الإعياء . . هل يقدر الزائل على اعتناق الدائم ؟ وعاد الآخر مكفوفاً .. آه من الشمس تقتل من حيث تحيي : وهجها ينير ويعمى : أضاءت البيت المنقور أى إضاءة حتى إنها أطفأت العين .

عاد الكسيح والمكفوف وبين أيديهما الأبد . ولم يدرِ أحد

من أهل الزاوية أيسخران من الموت أم الموت يسخر منهما ؟

— « يا رجل لا تُصعِّد فى الجبل . »

— « أنا مصعِّد فيه يا قوم . »

— « أتبتنى الأبدية وأنت بشر ؟ أتخرج على سنَّة الكون ؟ كل ما فيه مقدَّر : الجفاف يترقب النبات ، والليل راصد للشمس ، والموت يُحصى على الإنسان أنفاسه . »

— « الكون مبذول لنا ، ولسنا بمدفوعين إلى الكون يعبث بنا ويتحكم فى أمرنا . الكون مبذول لنا ، فليُسَخَّر ! قيوده للعبيد ، لمن يُطوِّح النظر إلى فوق وكفُّه مبسوطة فوق حاجبه . هذا الجبل يكسر طرفى ، وأنا أريد أن أحدِّق إليه وأقول له : الآن لا أسارقك النظر ولا أخشى لمسك وخطفك ؛ لأن سرَّك انتقل إلىّ . أنت تطويه فى رأسك وأنا فى عروقى أبثُّه ؛ أنا أفضُلك وأبهرك ، لأنك صاحب السر ، وأما أنا فمختلسه . أنت قبضت على المستحيل وهوَّلت به علينا ، وأنا أجعله برجولتى ممكنا . »

— « ولكن الكسيح والمكفوف ، ألا تتعظ بهما ؟ »

— « إنهما رغبا فى الأبدية طمعاً فيها وحدَها . وأَما أنا فأطلبها لتنقاد ، لأحسّ أنى ظافر . هما رغبا فيها للتنعم بالحياة الباقية ، وأَنا أطلبها لأصرعها ... كالمرأَة تستمتعون بها وتَلهَون ، وأَما أنا فأطرحها تحت همتى لأشعر بأنى أملك شيئاً نابضاً ، شيئاً أَستطيع أن أَنشر فيه من إرادتى وأَسلّ منه إرادته عِوَضاً . وإنى لا أحسّ رجولتى إلا إذا وجدتنى السلطان القادر على حياة غيرى . حياتى لا أملكها لأنى عبد لها تسيِّرنى ولا أَجرؤ على الانتقام منها ... لا يقتل نفسه إلا من افتقد حياته فانفلت من ضغطها ؛ ولستُ كذلك ، حياتى بين يدىّ ولكنهما لا تسعانها . »

تمهل الرجل يتصفح القوم ثم واصل :

« أَنا مصعِّد فى الجبل حتى أَغتصب عمرى من براثن العدم . فأعود سيِّد نفسى إذا ضايقتنى أَدَبتها ، سيد جسمى أُفنيه متى أَشاء ، سيد روحى أُميِّلها على هواى ... الروح التى حِرتم فى شأنها سأقبض على أطرافها وأجعل لها من عظامى إطاراً يخنقها . أَنا مُصَعِّد . »

قال الرجل مقاله ، فضحك الكسيح وبكى المكفوف من خلفه ، كأَنَّ أحدهما يتمم أخاه ، ثم حمل المكفوفُ الكسيحَ وأَخذا

يتحسَّسان – هذا بعينه وذاك بقدمه – نعيم الفناء : الأرض وما عليها .

عاد الرجل إلى مقاله :

« أنا مصعِّد ، وسأُلقى إليكم كلَّ يوم بحجر لأُعلِمكم بأنى سالم ، حتى أَرجع إليكم فتلتفوا حولى وتسألونى أن أَفتك بهذا الكسيح وبهذا المكفوف لأنهما طلبا ما فاتهما خطرُه . أنا مصعِّد . »

هدأ الرجل . ومن بين الصفوف برزت فتاة قالت :

« لاتذهب إلى البيت المنقور . »

أَخذت الرجلَ بُحَّة وهو يقول :

« يا حبيبتى ... »

تطلعت الفتاة إليه قلقة البصر حيرى السمع ، فأكَّد الرجل :

« نعم ، حبيبتى ! الآن فقط اناديك : يا حبيبتى . ومِن قبل كتمت مايشغل صدرى ، لأنى لو نشرت حبى بين يديك لتعطَّل إحساسك الدفين به . »

ثبت القلق فى البصر وامتدت الحيرة فى السمع . فزاد الرجل :

« الروضة التى عن يمينك تجلسين فيها تنقِّين البصر ،

فيتزود ، فينساب سحر مستتر تحت الجفنين فيغلبهما ويُطبقهما ، ثم تقبّل صاحبة من صواحبك فتصيح : ما أجمل الروضة ! فينزعج السحر ، ويفرّ من تحت الجفنين ، فينفرجان ؛ فترى عينك ما تراه عين صاحبتك : تلمس حواسُّك الأشياء ، فتصحو ، فتَبطل الخلوةُ بالوهم الخاطر ... الحب والجمال كالبريق فى الياقوت الأصفر الرقيق : ماء رعّاش فى تعاريج الجوهرة ، فوق الوصف ودون اللمس ... الحب والجمال وماء الجواهر لا تفعل فعلها إلا إذا رفَّت وراء حجابٍ شفّاف ... يا حبيبتى . »

دنا الرجل من الفتاة التى برزت من بين الصفوف ، فارفضّ القوم . فقالت الفتاة :

« لا تذهب إلى البيت المنقور . »

ضمها الرجل إليه :

« اليومَ أناديك : ياحبيبتى ! لأنى منصرف عنك . لحظةَ ينشرم اللحم من اللحم يحسن بالألفاظ أن تنفح دما . وهل يفور بالدم غيرُ الألفاظ القدسيّة ؟ »

فك الرجل الفتاة من الضمة :

« وما أحرانى الآن بأن أناديك : يا حبيبتى ! إنى بباب

المعبد . سأدخله فى الوقت الذى أختاره ، سأدخل معبد الزمان المنزَّه عن خطر الانفصال ، فأختطف من دعائه حقيقة حرفين متلاحمين : الحاء والباء ، لأن الحب نَفَس متصل. اليوم لى الحق أن ألفظ الحرفين لأنى قريب الاتحاد بالقوة الراسخة ... آه ! يضحكنى البشر حين يخرجون حروفاً وُضعت لغير حلقهم . البشر إلى الزوال ، والحب حابس العابر فى المقيم ، حابس الزمن الدائر فى دقة قلب . »

قالت الفتاة التى برزت من بين الصفوف :

« لا تذهب إلى البيت المنقور . »

فتدفق الرجل :

« أتخشين أن تشغلنى الأبدية عنك . لا أهواها ولا أشتهيها ؛ إنما أريد أن أذلها ... أنت تغارين منها لأنك تحسّين ما تكون هبتها لى . ستهب لى سرها ، ويشق عليك أن ينافس سرَّك الذائع فى صدرى سرٌّ داخل ، ثم تُحسين أن الأبدية شىء يماثلك ، شىء يمنح السعادة .

ثم جعل الرجل يقطِّر كلامه :

« لا تغارى ياحبيبتى . سأجعل الأبدية سُلَّماً إليك . فأجلس

إزاءك ، نِدًّا إلى ندّ . أنت امرأة تبسط الدنيا لحبيبها فيسع الأشياء كلها ولا يسعه شيء ، وأنا رجل قد نزع قدمه من ورطة الأرض ... كُفّي عن منعي . »

همهمت الفتاة :

« يا حبيبي ، لا تذهب إلى البيت المنقور . »

وذات يوم لم يسقط حجر . فندّد القوم بالرجل ثم سبّوه ... لِمَ يحاول الفوق عليهم ثم يكبو ؟

وفي الليل حلم المكفوف أنّه رسّام والكسيح أنه رقّاص ... الشماتة فنّانة !

ثم مرضت فتاة .

وذات صباح هبط الرجل على القوم سالما . فالتفّ القوم حوله :

— « أنت ؟ حيّ ؟ هل أكلت من العشب ؟ »

— « عنى ! الطريق ! »

— « ولِمَ أمسكت عن إلقاء الحجر ؟ »

— « إلى من أُلقي بالحجر ؟ لا ترقبوا الشيء من عل ؛ نقبًّوا في جوف الأرض ، يا بشَر ! عنى ! الطريق ! »

دخل الرجل بيت الفتاة التى برزت من بين الصفوف ثم مرضت .

والفتاة لم تكن فى البيت : قتلها الحجر الذى لم يسقط .

خرج الرجل إلى الجبل ، ورَقِيَ فيه يقصد إلى البيت المنقور يحاسبه .

ولما كان صباحٌ سقط الرجل من الجبل ميْتا ... قتل الربُّ نفسه ، والذى قتله بَشَر .

شتورة (لبنان) ، أكتوبر ١٩٤١

ناس

كان يمرّ بنا بعد مغيب الشمس، كأنه مبعوث الغرب يحاسبنا على اليوم الذى أضعناه . ومن لا يُهلك يومه فى مصر ؟ الضياع عندنا سنّة، ألم نبـدأ بفقدان الحرية ثم أمسينا نحلم بها ؟ . . شيخ يتصابى !

كان يمرّ بالمائدة التى نجلس إليها ساعات، كأننا موكَّلون برعاية ما جمد ؛ وأما الذى يتحرك فنهمله فى مجاهل النفس : نحن قوم يحرصون على دفن النابض .

كنا نجلس فى خارج القهوة، على « الرصيف » . ولعلنا كنا نريد الفرار من الجدران تحتبسنا ، فنهجم على أشبارٍ مغتصبةٍ فى الطريق . . . كلٌّ يتمتع بالحرية على قدر ما يستحق .

وكنا نلمحه من بعيد . . . المكروه يبث شرّه أمامه : أليس الشيب نذير الشيخوخة ؟ كنا نلمحه من بعيد : رأس رجراج ، ويد رجّافة ، وقدم حيرى ؛ كأنه فى العالم ليشعرنا باختلاله . وكان طويل القامة ، مع ظهر مقوَّس ، قوَّسه حزن ترك فى منعطفات وجهه مثل آثار السيّارة فى الأرض الرخوة : حزن ثقيل أطفح عينيه المطبقتين إلَّا قليلا ، وقد أطبقهما تفكير اليائس . وعلى أية حالٍ كان الرجل يبدو فقيراً ، وهل من حق الفقير أن يشمِّخ ظهـــره ؟

وكان يجعل على رأسه قبعـة من خوص ؛ كان الرجل من الإفرنج . وكنا نحسده عليها ، لأننـا نتجشم الطرابيش . . . ويزعم قوم أننا لن ننزع هذا الغطاء الأحمر حتى ينفسح عن مصر الخطر ، خطر التفكك . ويؤكد أحدهم أن هذا الغطاء لاحقنا فى القبور . ما دامت الأَثَرَة غلّابة .

وكان تحت إبطه كتب ، ينقضّ بها علينا . أما الكتب فهى هى : تافهة ووسخة . وكنا نردّه . . . غريب ! يعرضها علينا كل يوم كأننا لم ندفعه فى اليوم السابق . وكان يطيل الوقوف تلقاءنا ، كأنه يرقب الرد أو يستمنحنا إياه . وكثيراً ما كنا نغلظ له

فى الرفض ، لأننا بشَر . فكان يعتذر إلينا — أو يشكرنا؟ — برفع القبعة عن رأسه المذبذب .

قلنا إن الرجل مختلط العقل ... وما أيسرَ رمىَ بعض الناس بالجنون ! تلك حيلة الغِرّ . وصرنا لا نلتفت إليه مخافة أن يطلعنا على خفايا اليأس .

وذات يوم عزّ علىّ أن أسلب النهار حقَّه من الضياع ، فخرجت إلى القهوة قبل أن تغيب الشمس . وجدت المكان خالياً إلّا من الصبر المطمئن . فانتحيت جانباً أفكر فى هلاك مثلى من الأحياء ببطء . وإذا امرأة إفرنجية تجتاح أرجاء القهوة بنظرة حنق ، ثم تمسك بكرسى قريب منى ، وتبذل له ، فى غير عناية ، مفاتن متماسكة خشيةَ العثور .

حدّقت إلى المرأة ، فبدت لى جميلة . وما كدت أسارقها النظر على عادة روّاد القهوات - وهم أصحاب قحة — حتى دخل صاحبنا الذى يجعل على رأسه قبعة من خوص . أقبل على المرأة وحيّاها بابتسامة متلوّنة ثم جلس إزاءها وهو لم يحسَّ بى . فسمعت حديثاً :

— « أردتِ ذلك وأردتُ هذا . ولكلٍّ ما يبدو له . هذه جملة لقنّتنيها يا صديقتى . »

— « ولكنى بلغنى أنك تصنع ما لا يرضاه أحد . استمع إلىّ ، حبيبى . »

— « حبيبك ؟ أراك تمزحين . أمِثل هذا أقبلتِ ؟ حبيبكِ لأنى عرفت كيف أستدرجك إلى هذا المكان . أترين هذه الموائد والمقاعد؟ ثم انظرى إلى «الرصيف» الذى يمطّ القهوة فى الطريق ، كل ذلك يشهد بأنى أذل نفسى حين يحرك الليلُ همومَ البشر . أعرض كتباً على الجالسين ، وأنا أدرى أن دأبهم ردى . وقد عينت لك هذا المكان لمّا سألتنى لقاء ، لكى تتحسسى مجال ذلى وتطئى أرضاً تستحيى منى . ولم ترغبى فى اللقاء إلا بعد أن أخبرتِ بأنى أسير سيرة مرذولة . رأسى ويدى وثوبى ، هيئتى كلها مدعاة للنبذ الآن . ومن قبل كانت هيئتى حسنة ، وحرفتى كانت شريفة ، ومع هذا رأيتِ أن تنبذينى ... وأنا زوجك . »

— « لم أفعل ، ولكن ربما اضطرب شىء فى وليجة نفسى ، وهل أملكها ؟ »

— « أسعد الرجال مَن جهل دخيلة المرأة . أحسستُ أنك

تميلين عنى ، وأنك منحرفة إلى بعض من كان يتودد إليك ؛ فخصصتِه بما كنت أطمع فيه بحق ... علمتِنى أن قلب المرأة سرداب مظلم يدخله الداخل وهو لا يدرى من يكاد يمسّ فيه . »

ثم اهتاج الرجل :

« وذلك المفضَّل هو الذى أخبرك بحالى ، لأنه كان يختلف إلى هذه القهوة . »

فاستعطفت المرأة :

« دع الخنجر فى الجرح مستقراً ، ألا يُرْضيك إلا رجّه ؟ »

واصل الرجل كأنْ لم يسمع :

« لمحنى ذات يوم ومعه نفر من أصحابه ، وهم أصحابنا ، فعرفونى ، فتغامزوا عليه . ولا شك أنهم أذاعوا القصة ... ما حديث الأصحاب سوى مصائب إخوانهم : أذاعوا أن زوج فلانة بحالة بؤس شديد . وأنت لا تزالين تحملين اسمى لأنى رفضت الطلاق . »

وهنا ركز الرجل عينه فى عين المرأة :

« كيف أُطلِّقك وأنا أسير لؤمك . »

ثم واصل :

« لا بد أن صواحبك تغامزن عليك كما تغامز أصحابه عليه والعجيب أن القاعدة فى مثل هذا الأمر أن يجتمع الغمز على الزوج المغلوب ، ولكنى بائس ، حقير . وهل يفيد الناس أن يسخروا بى ؟ إنما هم يسخرون بأصحاب المكانة والسعادة . أتعرفين من أنتِ الآن ؟ امرأة سائلٍ صاغر . وأما ذلك المفضَّل فلم يتغلب إلا على سائل صاغر ... كان بينى و بينك حب . فكنتِ المِسْعَر وكنتُ الحطب ، واليوم صرتُ إلى رماد . »

ثم أرسل قهقهة خفيفة ، فاستدمعت المرأة ، فقال :

« لا تبكى يازوجى ، أنا لا أدرى كيف أواسيك لأنى لم أعهد فى وجهك غير الضحك الخفى . بل ابكى ، فهذى الدموع التى تنسجم على خدك دليل على أن بؤسى أقوى من نعيمك ... بل ردّى الدموع يا زوجى ، ردّيها ، لأن الخائنة تبكى على رجلها علانيةً لتضحك منه سرًّا ... »

خفض الرجل صوته يحدِّث قلبـــه ، فالتقطتْ أذنى قوله :

« على أية حال إن دموعك عزاء »

فأفاقت المرأة :

— « هل أنت إنسان ؟ »

— « وهل يقدر على هذا سوى الإنسان . نحن أحذق المخلوقات افتناناً فى الإيلام . »

— « انتقم منى بغير هذا . ألا ترتدُّ عن السيرة التى تسيرها ؟ »

— « لا أعدل عن طريقة ناجعة . إن رجرجة رأسى من طول تفكيرى فيها . ألا تعطفين على رأسى ؟ »

— « وأنت ، ألا تعطف علىّ ؟ ياهذا ! إنى امرأة »

— « الذل أنسانى الرقة . والمرأة ثعبان قد فاتنى أن أسحره قبل أن يلسع . »

— « أنا فارَّة إلى بلد آخر . »

— « هذا ليس لك . لأنك تحت طاعتى ومالى بين يديك موفور . ولِمَ تفرِّين وأنت صاحبة شأنك ، لك ما تشتهين من مسالك الشعور »

— « ماذا تريد أن أصنع ؟ لا أستطيع أن أرى الرجل الذى

يُكلِّفنى اسمه على هذه الحال . اعرضْ شيئًا ... هل أعود إليك خاضعة ؟ »

— « اسمعى . تعودين إلىّ بعد ثلاثة أشهر ، على شرط أن تأتى هذه القهوة ثلاث مرات فى الأسبوع ، فتتأملينى أطوف على الجالسين . »

— « أليس من عرض آخر ؟ أتظننى أقوى على هذا ؟ القسوة تسكرك . »

— « أنتِ بالذل أولى منى . »

وذات يوم دخلت المرأة القهوة ، والرجل يطوف علينا . دخلت وفى وجهها مِثلُ صَلب المسيح . دنا الرجل منى : فلم أتمالك أن قمت إليه فحييته ، وكدت أعانقه ثم قلت :

« ياخير الخلاّن . أتخدعنى بهذا الثوب البالى ، وبهذه الرجفة التى تحيّر يدك ، وبهذا الانحناء الذى يركب ظهرك ؟ وما الذى دفعك إلى هذا ؟ أتستُّراً أم هو أسلوب من أساليب الفرنجة نجهله ؟ اجلس إلىّ جلستك فى كل يوم . وهلمّ أسقِك وتسقنى . ثم اطرح هذه الكتب التى تحت إبطك . هل تحْسن قراءة فى صخب قهوة ؟ »

نظر الرجل إلىّ فى ذهول وحنق . فلم أدعه يتماسك ، بل نترته إلى المائدة وكدت ألصقه بصدرى وهو يتمنى موتى .

خرجت المرأة ووجهها يتنازعه الغيظ والفرح . فتركتُ الرجل وشأنه ، وعدت إلى دارى وشىء فى نفسى يخبرنى بأن النابض فىَّ انبعث فجأةً من مدفنه .

القاهرة ، ٢٢ يونيه ١٩٤١

نعمة أمة

كتاب تبعث به رسامة من قرية يحتلها الألمان فى فرنسة

« فى الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩٤٠

صديقى العزيز

... آهِ من الملموس الخشِن ، قد فتك بالرقة المفروضة فى الأنامل ! فاعذر القلب إن خانته اليد . منذ يونيه المنصرم أراقب جلاء يذكرنى بحوادث كنت أظنها طُويت بانطواء أخبار التوراة . والريب الذى كان يداخلنى فى صحة تلك « الأخبار » قد وهى ، قد فنى ... الإيمان مرهون ببلاء النفس .

خِلنا النصر معقودًا بالمادّة ، فاستنبطنا آلات ورفعنا حصونا .

ولما نفرنا إلى الكفاح تعطل المستنبَط وتفتت المرفوع ، فتصعّدت المادة بخاراً، مخلّفةً وراءها رواسب جهل: نحن قوم تركوا قراءة الإنجيل ولم ينهض فيهم مَن يعوِّضهم من هذا الكتاب . إنّا نكره الأنبياء ، لأننا ارتطمنا فى مواحل الأرض ، زَلَقَنا فيها المثلُ الأسفل ، فخذلتنا الوثبةُ الباطنة . الآن ، الآن ندرك أن بيننا وبين سرّ الكفاح شُقَّة : إنما عدَّة الكفاح فى الضمير .

ما أثقل هذا الصليبَ المسمَّر بأكتافنا شماتةً وتنكيلا ! إنه لا ينفك يحزّ همنا المتوترة يأساً ، فيعثر العزم ، ولا يقيله هنا وهنا إلّا حنق جلّاد للفكر الذى يأبى أن ينطفىء . ثم ما أغلظَ هذا الخرابَ الذى يستقبل ما فى إرادتنا الدامية من الانتفاضات الشهيدة ! ومع هذا فقد جاءت الساعة التى يحسن بنا أن نثب فيها إلى أقصى الأفق ، ونُكبر القلب حتى يسع خفقان العالم كله ، العالم الذى يشدّنا إلى أسراره بحبال من نار... إنه باقٍ بقدر تمسك الكائنات به . إنه يجب أن يدوم ، وإن كان أصل الشقاء وما يجرّه من ابتلاء فلنقبل الاحتراق !

أنا مقيمة هنا ، وأختى معى : شمعتان لا تجدان من يستصبح بهما لعُدوان الظامة حتى على خاشع النور . نحن هنا حيث تجسَّم

الماضى ، جسَّمه شبابنا وانبساطه أيامَ كنا نفرُّ من باريس إلى الريف ، فرار العاشق المجهود لا فرار العاشق القاطع . مضى الماضى ، وأما المستقبل فعبارة مبهمة . وتنبئنا البصيرة المفجوعة بأن مدة الضجر مما يكتنفنا فى استقرار وتزايد .

لا أقول إنى أشكو الملل بمعناه المتعارَف . لا أشكوه بذلك المعنى الأجوف . ففى قدرتى أن أتألم ، وإن بغى الألم . بل فى قدرتى ما فوق هذا : أستطيع أن أبتر اليوم المتطاول ، بفضل طاقاتٍ من الذِكر تفسح الصدر وتعمر الفكْر ، ومواكبَ من المعانى وحركات النفس تناهض الخَواء الذى هيّأه « الكل » من حولى . والحق أن هذا الخواء أثقل ألوان الترك والجفاء . تركنا الذى كان تبقَّى ، ثم جفانا ما كنا نملك وهما .

المشنوق يتطوح والفضاء حوله والأرض تحته . نحن كذلك . غير أنّا نؤثر أن نظلَّ نعانى الشنق ، لأننا نعلم حق العلم أن الأرض التى ترتقب أقدامنا فى جزعٍ غير ثابتة . أندعها تسوخ بنا وفى مؤخِرات أنفسنا فَلُّ عزمات . ؟ التطوح تردد ، ووراء التردد أمل ، الأمل الذى يغذِّى الشك فيجعله حقيقةً فعّالة . وأما السقوط إلى الأرض فيقين : هلاك يقذف بنا فى لجَّة التاريخ ... الشك

أهون من اليقين أحيانا . نحن فى ذمة الهواء الآن ، ومن حولنا سكون الإعياء .

حتى فى هذا السكون المستفيض كرهاً تبرز طبيعتنا قوةً حيويةً بحّاثةً أبدا : قد التوى الرسم على الأنامل ، وطاشت الخطوط ، وفرّت الألوان – كأنما الكون رقعة بللتها دموع – فحار المِرقم ، فلا إنجاز عمل . غير أنه لجميل أن أفكر فى « الصعود إلى الصورة التامة » بحسب ما تمثلها أرسطو : صعود لا يقنعه أن يُنظِّم السير المستدير ، بل يطمع أن ينبسط على أبدية القرون حتى مستقبل غير منظور يُعدُّه لنا وفينا . إنه لجميل ألّا يخلو رقود الطبيعة من نشاط الرؤى .

إنى أحنّ إلى معملى فى باريس ، فى حىّ مونبارناس ، حىّ الجِد العابث . غادرت هنالك ألواحاً كنتُ خططت عليها أشكالاً وصورًا ، وفى نيتى أن أعود إليها أُتمّها ... أنت أدرى بمعاودات الفنان ! ألم تقل لى يوم كنتَ معنا فى ذلك الحىّ : إنها مثل التفاتات النهار يودع ضوءه ؟.. ويا بُعـد معملى الآن ! وهبنى رجعت إليه فهل أقوى على معالجة الألواح ؟ إن حديث النفس كان من قبل هادئاً عذبا . أما اليوم فالنفس نُهبى عراكٍ كله ضجة :

الأصوات ثقلت ، واللوامع انقلبت وساوس تَطِنّ ، والإلهام مضرَّج باستصراخ الشهداء ... لِتَلحق تلك الألواح بالشهداء ! هذه ثروتى أطرحها لأنى أحب الآن أن أضرب فى عالم الفن ، وبصرى بالمنظورات قد صفَّاه العذاب ، وحدَّده الندم .

وعهدُنا الذى فُرض علينا ، عهد فجيعتنا ، هذا الضغط الباطنىّ الذى يُحيِّر عروقنا ألَا ينفضّ فى الزمن الآتى ؟ هذا الضغط يَهيج شهوةً قد تجد منفرَجاً على التدريج . إلا أنه كثيراً ما يخطر لى هل نُحكم الصنع بعد البلاء ؟ وما أدرى لِمَ أشك الحين بعد الحين فى خصب تلك الفجيعة ، فى قوة إثمارها ، فأُعدّ نفسى للتسليم بأن الذى تُرك لى من العمر إن هو إلا فناء تصدَّر الأجلَ المضروب ... »

القاهرة ، بعد سقوط باريس

المرأة والفنان

مادّة لقصـــــة

عنصران يتجاذبان ويتدافعان فى آن : يصيب كلاهما عند الآخر أجلَّ صفاته خطراً فينعطف إليه انعطاف الكتاب إلى الكتاب على رفٍّ خزانة ، ثم يفطن إلى أن فيه تطاولاً على كيانه فينبو عنه نبوَّ الإيمان عن النفاق .

تتبين المرأة فى الفنان لطف إحساسها وفيض تخيلها ، ويؤنسهما الفنان فى المرأة ، ومتى خبر كل منهما الخلق عدل عنهم إلى صاحبه .

إن المرأة ما تنفكّ تصيح فى وجوه الرجال : « إن جبلّتنا — معشرَ النسوة — أعلى من جبلتكم ، ثم إن فى تعاريج أنفسنا ما يفوت أوهامَكم . وإذا اتفقنا لمحةً اختلفنا دهرا . ووالله إنا نتمثل السعادة ما دمنا لكم ، هى تزيغ من فجوات أصابعكم ... السعادة تنفر من الخشونة . وأما شعورنا فإنكم تعبثون به وتعدّونه ضعفاً ، آهِ لو علمتم أنه الشعاع الهفّاف على صفحة الكون ! »

وأما الفنان فما يبرح يقول فى نفسه : « إن هؤلاء الرجال لَمِن طينة مرذولة . إنما همهم حَرز المال وطلب الجاه وقضاء أوطار زاحفة . فأين هم منى ؟ وكيف لى أن أخالطهم ؟ وأنّى لهم أن يفهمونى الفهم كله ؟ أراهم يلهون بى ويرمونى بالجنون أو بالحمق ، ليتهم علموا أنى الرجل الذى يستخف بهم ويفضُلهم ! ليتهم علموا أنى عزاؤهم فى المفازة ! »

كذلك تنحرف المرأة والفنان عن الرجال ، غيرةً على إحساسهما وإبقاءً على تخيلهما . ثم ينصرف كلاهما إلى الآخر من طريق هذا التخيل وذلك الإحساس ، مطمئناً إلى أنه وجد من يقدره كل قدره ، ويستطيع أن يسبر وليجة نفسه فيتحد به . شأنهما فى ذلك شأن الجداول تنساب فى الوادى ، فلا

تُفضى إلى سهل حتى ينجلب بعضها إلى بعض ... غاية النظائر إلى التئام ؛ الحبيب فى الحبيب يفنى .

إلا أن هنالك ما يُنفِّر المرأة من الفنان ، والفنانَ من المرأة . وذلك أن كلاً منهما يُؤثِر نفسه على جميع الخلق أما المرأة فمثلها كمثل الطفل ، إذ تعدّ نفسها قِبلة الحياة . فإن دار العالم فهى مركزه ، وإن صعد فهى سُلَّمه ، وإن تاه فهى نجمه ، وهى حِداؤه إن وقف . ثم إنها من نطفة مصطفاة طاهرة ، وهى المسئولة عن تهذيب الرجال بإخراجهم من ضنك المحسوس إلى فسحة ماوراءه . ثم إنها للكون جوهره من حيث إنها مِسعَر الحب ، فإن عُقدت آمال الإنسانية على أحد فإنما هى المعقد .

كل هذه النظريات النسوية تدفع المرأة إلى الاعتزاز بنفسها ، فترعاها رعاية الصوفىّ لوجده ، وتسهر عليها سهر المحروم على حُلمه . بل إنها ترغب إلى الرجال أن يعنوا بها . فإن لابستْ أحداً منهم طالبته بتعهدها سرًّا أو جهرا ، ولربما حملته على أن يحبس نفسه عليها بيد أن أَثَرَة المرأة هيهات أن ترتوى ، فهى كالمحيط الذى تَصُبّ فيه الأنهار والتلاع ولا يعرف الغَصَص ... محيط كأنَّ لجته

من شهوات البشر .

أما الفنان الحق فأثرته من لون آخر . إنه يحيا فى سبيل شىء واحد : فنه . وأكبر دليل على هـذا أن الرجل صاحب تأمل وتصور . وإنما الكسل نتيجة ذلك . إلا أننا نرى الفنان يدأب ويجدّ . والذى يحضه على أن يغالب طبعه صوت ينفخ فى ضلعه أنه ضمّام سرّ .

والفنان يحطُّ كل شىء عند عتبة الفن ، كالنار تصيِّر كل ما تلحسه رمادا . فإن فرح الفنان أو أحب — وعيش الفنان حب يغذيه بغض ، وفرح يشدده حزن — فإنما يبتغى من وراء مُحَسّاته ومدرَكاته مدداً لفنه . وأشَطُّ من ذلك أن الفنان يستبد بالمرأة — وهو يحبها حقًّا — بل يستغلها إذ يشق قلبها فيجعل مما انشقّ درجاً يترقّى به إلى قمة مطلبه

وهيهات أن تخفى أثرة الفنان على المرأة . فإذا بها تنصرف عنه سليقةً ، تعصباً لأثرتها واستمساكاً بشخصيتها . ثم هيهات أن تغيب أثرة المرأة عن الفنان . فإذا به ينثنى عنها خشيةً على وثبة فنه : رفيقا سفرٍ توجَّسا ، فى صدر كليهما من صاحبه سحاباتُ أشياء .

والمرأة ، مع هـــذا ، إذا تذكرتَ ، منجذبة إلى الفنان كما تنجذب الزهرة إلى النور . والفنان ، مع هذا ، لاسبيل له عن المرأة ، كالسراج إن خانه الدُّهن هلك . وشأن هذين العنصرين فى تجاذبهما وتدافعهما فى آنٍ مثل شأن العامل ورب العمل : بكليهما حاجة إلى الآخر على نفور منه .

وقائلٍ يقول : « إن المرأة التى تعنيها وتصفها صِنف من صنوف النساء . وأى شىء يضطر الفنان إلى أن يقصد نحوها ؟ إن هنالك امرأة لا تعرف سوى الإيثار ، وخير أنموذج لتلك المرأة المرأة الشرقية المعهودة ؛ ويحَك ألا ترى كيف تبذل نفسها فى سبيل رجلها بل سيدها ؟ »

مهلاً ! إن المرأة التى ما تعرف سوى الإيثار لا تملك للفنان نفعا . ما قدر امرأة تحب الرجل كما يحب غيرُ الصوفى ربَّه ؟ إنما يحبه ساعةَ العبادة . إن إحساس الشرقية المعهودة كنهر تراحب مسربه ولا عمق له ولا غُزر . وأما انقيادها واستكانتها فلا يجلبان للرجل إلا الراحة ، والفنان عدو الراحة لأن فى دعة نفسه سأمَه وفى اضطرابها هِزَّته . وإنه فوق ذلك يحذق تعقيد حياته إن هى انبسطت ، ويفتنّ فى إثارة مشكلات النفس إن

هذه سكنت . ثم إنه لاحاجة به إلى عكازةٍ تثبت قدمه ، بل به حاجة إلى مصباح ينير طريقه الصعب . وإنما العكازة لمن يسير الهوينى ، والمصباح عون لمن يثب ويسعى . هذا أُعدّ للنفس التوّاقة ، وتلك للنفس القاعدة .

وما يكون نصيب الفنان من امرأة لا ترى إلا من طرْفه ، ومن أُذنه تسمع ، حتى إنها لتميل ميلانه وتذيب حياتها فى حياته ؟ هل يشعر الفنان أن بجنبه نبضاً . وأن حواليه روحاً ، وأن بين يديه زنداً يستخرج منه لهيب الإبداع ؟

إن الفن يتطلب الشعور الوهاج لا الشعور الهامد ، السيلَ العاتى لا الجدول الناعس .

إن المرأة التى تصلح للفنان امرأة تعرف ما الفن فتزن خطره ، ثم تدرى أى رجل يطلب الفن ، ويقوى على ممارسته . ثم هى التى تزدرى المال ، فلا تسأل الرجل أن يضرب من أُفق إلى أُفق ابتغاء الإثراء . وهى التى تتطلع إلى ماوراء عيشة اللهو أو عيشة الدار ، لأن الفنان يعبر اللهو عبوراً ، ويكره الحياة المطمئنة ، حياة الأسرة . ثم هى التى تحتفظ بشخصيتها للفنان ، وهى التى تنشر فيه نشاطها شعاعَ شمسٍ يندفق به دم العروق .

أين هذه المرأة ؟ إنها بين أيدينا . إنها تلك المرأة التى تنعطف إلى الفنان وتنبو عنه فى آن . إنها تلك التى تُؤثر نفسها على جميع الخلق .

إن المرأة التى تقدر نفسها فوق قدرها فتجعلها قِبلة الحياة ومركز العالم هى وحدها التى تستطيع أن تُكبِر الفنان وتسعى فى سبيل الفن ، لأنها تفطن إلى جلال المعنويات . ولولا أنها تفطن إليه ما التمست لنفسها العزة والرفعة ، وحجتها أنها منبثَق الروحانيات فى العالم ومدارها .

ولكن هذه المرأة ، إذا تذكرتَ ، تنقلب عن الفنان حرصاً على شخصيتها وغيرةً على أثرتها . فهذه المشكلة فى اطراد .

إلا أن المرأة الذهّابة بنفسها . المستمسكة بشخصيتها ، المتعصبة لأثرتها ، إنما تكون كذلك عن غرور ، والغرور رديف المرأة بل هى رديفه :

إن صفّيتَ حب امرأة لرجل من الرجال رسب فى يدك حبها لنفسها ، والسبب أن المرأة إنما تحب فى الرجل تعلّقه إياها أو عنايته بها أو تودده إليها ، وأحياناً إهمالَه لما تود أن تهبه : فيا رقة قلبها لمن يحلف ليموتنّ من أجلها ، وسرعة استسلامها إلى من يخرّ عند قدميها ، وميلَ أذنها إلى من يصفها الوصف الجميل . إن المرأة

تحسّ إذن أنها صاحبة سلطان مطلقة ، على ضعفها المقيَّد ، فيطمئن غرورها . وأما إهمال الرجل لما تود أن تهبه فبمكان السوط لغرورها يَهيجه ويحركه حتى تجذب ، فتفلح ، فيطمئن غرورها ، أو تخفق فتمضى كمداً إلى أرض أطيب .

أما الفنان الذى يحْدِر المرأةَ دون فنه ، فمن أى باب يُرضى غرورها ؟ من حق المرأة أن تنتصف منه ، ألا ترى الشمس الباغية نهاراً الصريع ليلاً ما تصنع بمن لا يستظلّ ولا يستكفّ ؟ تلفح وجهه وتحيِّر بصره ، تتعوّض من طول مغيبها .

غير أن ذاك الغرور وإن كان مصدر أثرة المرأة لحقيق بأن يكون مبعث إيثارها ، كالداء الذى يصرع نفسه من طريق المصل . والطريق هنا أن يُصرف الغرورُ من جانب إلى جانب ، كالنهر يُحوَّل مدُّه من أرض إلى أرض . حقًّا إن المرأة متى انقادت للفنان اتفق لها أن ترضى غرورها إلى ما لا غاية وراءه . والسبيل إلى هذا أن تردَّ نبوغ الفنان وفلاحه إلى إعانتها إياه على عمله وثلِّ أثرتها من أجله : مصدر وحى ومرجع سموّ .

آه لو تفهم المرأة المغرورة !

بتسامو (فنلندة) ، سبتمبر ١٩٣٤

قصة ستكمل

طبق فول

السفينة

قيثار مغترب

المشتمل

مبروك

خريف

هلك النهار !

يقال قصة

امرأة

رجل !

ناس

قصة أمة

المرأة والفنان

Malentendus

contes

par

Bishr Farès

achevé d'imprimer le 19 Février 1942
sur les presses d' "al-Maaref

Le Caire

Pour monsieur le professeur Gaston Wiet
en considération et sympathie
Bishr Farès

Avril 1942

Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

NYU - BOBST
31142 02885 2054
PJ7824.A716 S8
Su' tafahu